العدد: ٣٨ / السنة التاسعة / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٣
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

القلب الأخضر

يا صاحب القلب الأخضر، سِرْ..
حُثَّ الخطى.. لا تتوقف..
فالأرض من خُطاك ستخضرّ، والشجر سيورق،
والحدائق ستزهر، وشذى الربيع سيفوح..
لا تقلْ متى وكيف؟
اتركْ "متى وكيف" لصاحب "كنْ فيكون".

* * *

الشورى

رسائل حية من عالم المسلمين

مؤتمر "الإجماع والوعي الجمعي"

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

العدد: ٣٨
السنة التاسعة
(سبتمبر – أكتوبر) ٢٠١٣

العقل الجمعي

مهما بلغ العقل البشري من حدَّة ذكاء ومن قوى إدراكية واسعة عميقة، إلا أنه قد يواجه في طريقه معضلات مستعصية يعجز عن حلّها بمفرده، فيلجأ للاستعانة عليها بعقلٍ آخر أو بعقولٍ آخرى لتشاركه في التفكير وتعينه على الوصول إلى الحلول الناجعة، فإذا ما اجتمعت هذه العقول، وكانت عقولاً ذوات تجارب كثيرة وخبرات واسعة، فإنها ستصل في نهاية المطاف إلى حلول مقبولة وصحيحة لهذه المعضلات. ومن أمثال هؤلاء الرجال المتميزين تشكّلت مجالس الشورى في تاريخنا، ليستعان بهم على تسيير عجلة الحاكم والمحكوم على حد سواء.. فالحرص على هذا العقل الجمعي، هو من أدلة الحكم الصالح والحكام الصالحين. وهذا هو خلاصة ما سنطالعه في المقال الرئيس لـ"فتح الله كولن" "الشورى"، مستشهدًا بالتاريخ وبسيرة الرسول ﷺ وبآيات القرآن الكريم.

فإذا كان "العقل الجمعي" للأمة صحيحًا وسالمًا، صحَّ جسد الأمة وسلم، فلم تعد مقولة "العقل السليم في الجسم السليم" مقبولة اليوم. فقد أثبتت الأبحاث النفسية خلال العقود الأخيرة، على أن سقم الجسم من سقم العقل، وأن مرض الجسم من مرض العقل، فانقلبت المقولة -كما يقول "فؤاد البنا"- إلى "الجسم السليم في العقل السليم".

أما العالم الجليل "علي جمعة"، فهو يرى أن حضارة المسلمين قامت على "العلم"، ولا يُرْجَى لها اليوم قيام إلا إذا استطاعت أن تكون مستولدة هي بنفسها للعلوم، من أجل أن يكون ثمَّة تفاعل مبدع مع العصر الحديث يؤهلها لاحتلال مكانها المرموق بين الأمم. وفي رؤية استعراضية لكتاب "الضاربون في الأرض" لـ"أديب الدباغ" يمضي "عماد الدين خليل" -ومن خلال الكتاب- إلى استعراض بعض أفكار "فتح الله كولن" الذي جاءت أكثر مقالاته في تجلية شؤونه الفكرية ومشاعره الإيمانية. وفي "تأملات في النبي والنبوات"، يرى "أديب الدباغ" في هذا المقال أن البشرية أحوج ما تكون اليوم إلى العودة إلى النبوات لحلّ إشكالات الوجود الإنساني التي لا زالت مستعصية على عقول الفحول من أساطين الحضارة القائمة.

وعن "الإلهام" وسَبَحات الإلهام، يستعرض لنا "سلمان العودة" بعض نماذج إلهامية واقعية كانت قد حدثت لأشخاص، وهي قد تحدث كل يوم لأولئك الذين يستعدون لها بصفاء أذهانهم وأرواحهم. وفي الختام يتساءل "سمير بودينار" بلهفه المشفق، ما الذي يحدث في عالمنا من فوران مخيف، وما هي أسبابه ودواعيه وخلفياته، وإلى أين ستأخذنا هذه الأحداث، وكيف نستطيع أن نفيد من كل ما مرَّ بنا من تجارب خلال عشرات السنين الماضية، وكيف نستطيع النهوض من تحت ركامات هذه السنين؟

وفي مسار "العقل الجمعي" الذي اختارته "حراء" ركيزة من ركائز خطها الثقافي والفكري، فلا يفوتنا أن ننوه بمؤتمر "الإجماع والوعي الجمعي" الذي نظمته مجلتا "حراء" و"يني أميت" في ٢٧-٢٨ أبريل ٢٠١٣ في إسطنبول، والذي ضمّ خيرة علماء الأمة ومثقفيها من ثمانين دولة في العالم.

وختامًا نسأله تعالى أن يجعل من هذا "العقل الجمعي" بمواضيعه المختلفة واهتماماته المتشعبة على صفحات "حراء" موضع نظر المثقفين المهتمين بشؤون أمتهم ودينهم.

المحتويات

الشورى / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
باب الله / حراء (ألوان وظلال)	٧
حديث الفيل / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٨
توليد العلوم.. من أجل تفاعل مبدع مع العصر / أ.د. علي جمعة (قضايا فكرية)	١٢
الضاربون في الأرض / أ.د. عماد الدين خليل (تحليل كتاب)	١٥
حلِّقْ واجْتَزْ / حراء (ألوان وظلال)	١٨
تأملات في النبي والنبوات / أديب إبراهيم الدباغ (قضايا فكرية)	١٩
خشونة المفاصل.. الأسباب والعلاج / د. خالد عمارة (علوم)	٢٤
سَبَحات الإلهام / د. سلمان العودة (أدب)	٢٨
اِنهضْ وانجُ / حراء (ألوان وظلال)	٣٠
الجسم السليم في العقل السليم / د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٣١
دلالات الزوجية في الكون / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)	٣٦
يا حادي الركب / سعود الصاعدي (شعر)	٤٠
استشعار الجاذبية عند النبات / أ.د. عبد المجيد بلعابد (علوم)	٤١
ابن الهيثم.. مؤسس علم الطبيعة / أ.د. بركات محمد مراد (تاريخ وحضارة)	٤٦
المسلمون وحقوق الإنسان–٣ / أ.د. أحمد عبادي (قضايا فكرية)	٥٠
رسائل حية من عالم المسلمين / د. سمير بودينا (قضايا فكرية)	٥٤
مؤتمر "الإجماع والوعي الجمعي" / عبد العزيز بن عمر (أنشطة ثقافية)	٥٧

حراء
www.hiramagazine.com

فتح الله كولن

الشورى

١

الشورى سِمةٌ حيوية وقاعدة أساسية لربانيي اليوم كما كانت للورثة الأولين كذلك. فهي في القرآن، أبرز علامات المجتمع المؤمن وأهم خصوصيات الجماعة التي تَهَبُ قلبها للإسلام. وتوضع الشورى في القرآن الكريم صفًّا واحدًا مع الصلاة والإنفاق: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(الشورى:٣٨)؛ فينبّه المولى تعالى إلى أن الشورى تعاملٌ يترادف مع العبادة، ويبين هذه المسألة الحيوية في الأمر الإلهي بالاستجابة لله تعالى وذكر ضرورات الاستجابة ونتيجتها: الصلاة والشورى والإنفاق.

فبهذا الاعتبار، لا يُعدّ المجتمع الذي يهمل الشورى مجتمعًا متكامل الإيمان، كما لا تُعدّ الجماعة التي لا تعمل بها جماعة مسلمة بالمعنى الكامل. فالشورى في دين الإسلام أساس حياتي لابد للرؤساء وللمرؤوسين من إجرائه. فالرؤساء مكلّفون بالاستشارة في السياسة والإدارة والتشريع وأمور كثيرة تتعلق بالمجتمع، والمرؤوسون مكلّفون ببيان رأيهم وفكرهم فيها للرؤساء.

وإنه لمن المفيد أن نورد بعض الملاحظات الهامة عن مبدأ الشورى. الشورى شرط أساسي لإقرار الرأي الصائب في مسألة من المسائل. و كثيرًا ما تظهر نتائج وخيمة وهزيلة للقرارات المتعلقة بالفرد أو المجتمع ما لم تُمحَّص بآراء الآخرين أو انتقاداتهم. وإن مَن ينحبس في رأيه ولا يَعتدّ بآراء غيره -مهما كان رفيع الفطرة وعالي الذكاء، بل داهية من الدهاة- يتعرض إلى أخطاء وزلّات أكثر مما يتعرض لها رجل آخر متوسط المواهب ينفتح في آرائه بالمشورة. فالإنسان الأعقل هو الأعظم اعتدادًا والتزامًا بالمشورة،

والأكثر استفادة من أفكار الآخرين. ومَن يكتفي بأفكاره الشخصية في عمله وبرامجه، أو يسعى لفرضها على غيره، لا ينجو من فقدان طاقة حركيةٍ مهمة، وزد على ذلك نفور وكره واستثقال ممن حوله لا محالة.

فالمشورة هي الشرط الأول لكي يجني المرء أفضل الثمار قاطبة من كل عمل يعمله، كذلك هي الوسيلة الأهم في استمداد قدرةٍ تفوق قدرته وطاقته أضعافًا مضاعفة.

فينبغي إجراء أوسع استشارة وتحرٍّ قبل مباشرةِ عملٍ من الأعمال، والجدُّ في الأخذ بالأسباب والتدابير، حتى نتجنّب الوقوع في تصرفات مضرّة تُضاعِف المصيبة في النتيجة، مثل تجريح القدَر أو اتهام الأفراد المقربين منا. ولا مفر من الندم وانكسار الخاطر ما لم يتم التفكير في عاقبة الأمر وما لم تؤخذ مشورةُ أهل المعرفة والخبرة قبل المبادرة في العمل. وكم من عمل خاض فيه الخائضون من غير رويّة فلم يمضوا فيه خطوات إلا أورثهم الانكسارَ والانكفاءَ في أنفسهم، وضعفَ الحظوة وخسارة الاعتبار عند غيرهم.

والقاعدة في الإسلام على اعتباره نظامًا مثاليًا؛ أن الشورى من أهم القُدُرات الحركية لقيامه ودوامه. فهي من أهم العناصر في حل القضايا المتعلقة بالفرد والمجتمع، والشعب والدولة، والعلم والمعارف، والاقتصاديات والاجتماعيات، ما لم يرد فيها نص صريح.

إن هيئة شورى الدولة في الإسلام، تتقدم على السلطة التنفيذية وترشدها. وهيئة الشورى في الدولة التركية اليوم، تُعد محدودة في الوظيفة، وضيقة الساحة في الحركة ومقيَّدة قياسًا بالشورى في الإسلام.

وإن رئيس الدولة (وليَّ الأمر الأعظم) مُلزَم بأصل الشورى حتى ولو كان مؤيدًا من عند الله ومُعلَّما ومُربّى بالوحي والإلهام. هكذا كان دأبنا في الماضي وكذلك دأبنا في الحاضر. ولئن وقع إهمال في تنفيذ مبدأ الشورى هنا أو هناك، فإن شعوبنا ومجتمعاتنا كثيرًا ما طبقته بأسماء وعناوين متنوعة. ولكن لم ينجح مجتمع أهمل مبدأ الشورى أو تناساه حتى اليوم أبدًا.. وعندما يقول سيدنا ﷺ: "ما خاب من استخار ولا ندم من استشار" (رواه الطبراني)، يعلّق فلاح الأمة وضمان مستقبلها بالشورى.

ترد الشورى في القرآن الكريم في آيتين بالتصريح، وفي آيات كثيرة بالتلميح. هاتان الآيتان المصرّحتان بالشورى من غير تأويل أو تفسير بأمره السبحاني هما: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩)، و﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾(الشورى:٣٨). هذا وفي تسمية السورة التي فيها بيان الشورى بهذا الاسم، حكمة بالغة.

فترد الشورى في هذه السورة وصفًا للصحابة الكرام مع الثناء عليهم، فكأن الآية الكريمة تتضمن بُعدًا من الثناء لهؤلاء الذين جعلوا الاستشارة محور أعمالهم وأمورهم. وإن اختيار وصف الشورى من أوصاف الثناء والمديح الكثيرة في الأصحاب الكرام، دليل على الأهمية العظمى للمشورة.

وكما يجعل القرآن الكريم الشورى قاعدة لها أهمية عظيمة، كذلك السنّةُ السنيّة تهتم بها اهتمامًا بالغًا، بل تحشد لها النصوص حشدًا. فكان سيدنا الرسول ﷺ يستشير كل واحد في كل مسألة ليس فيها نص، رجلاً أو امرأة، شابًّا أو شيخًا... ومع التقدم الكبير الذي حققناه في ميادين مختلفة اليوم، إلا أننا لم نبلغ بعدُ في فلسفة الشورى ما بلغوه في تلك الأيام.

نعم، كان رسول الله ﷺ يستشير أصحابه في كل أمر، ويستطلع آراءهم وأفكارهم، ويحصل على موافقتهم في كل عمل يخطط له، ويثمّن أحاسيس الوجدان العام، ومشاعر المجموع وميول المجتمع المتآلف كالبنيان المرصوص، لتكتسب قراراته قوة ومناعة لا يمكن زعزعتها. فقد كان يهيء الجميعَ لكي يشاركوا روحًا وفكرًا في الأعمال التي يبرمج لها، فيحقق مشاريعه بأمتن الحسابات الإحصائية.

لنطّلع على مشاهد من حياته السَّنِيَّة ﷺ المتعلقة بهذا الشأن:

حينما خرج حضرة سيد الأنام ﷺ إلى "أُحد"، لقّن أصحابه بعض التوصيات وراعى أمورًا إستراتيجية. ومن هذه الأمور التي أَنْفَذَها وضعُ الرماة في موضع مرتفع من "أُحد"، وتنظيم حال قتالهم، وتحذيرهم من ترك مواضعهم مهما آلت إليه مجريات الحرب، ونهيه عن النزول لاقتسام الغنائم... وتوصيات أخرى. ولكن الأصحاب الكرام وقعوا في خطأ اجتهادي في تقدير انتهاء مدة الأمر باعتبار الوقت مع رفعة فهمهم للطاعة ودقائقها، فصاروا في وضعِ مخالفةٍ خفية. وواجه سيدنا ﷺ معارضة ضمنية أخرى في مسيرة "أُحد". فلو كان أَحدٌ آخر في مكانه، وواجهته تلك المعارضات المتتالية التي أوقعت هذه الأضرار والخسائر، لأزاح آراءهم بظهر كفيه وقال لهم اذهبوا... عاقبكم الله! لكنه لم يفعل ذلك،

بل كان يتلو عليهم وهم منهمكون في البحث عن المذنب والبريء: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ ثم يجمعهم للتشاور ووجهُه يقطر دمًا جراء اعتداء وحشي كان بعض أصحابه سببًا له، وسط أشلاء أجساد الشهداء، وشَدَهِ الأصحاب وحيرتهم في أنفسهم، حتى توجّه بعضهم نحو المدينة في تلك المحنة غير مبالٍ بما حصل. ولم يكتف باستشارتهم، بل بلغهم بأمر الله له بطلب العفو والاستغفار لهم.

وهكذا يُظهر رسول الله ﷺ بأنه مأمور بالشورى رغم استمرار حياته السنيّة تحت أنوار الوحي، فيذكّر الرؤساء بمسؤولياتهم، ويفسح السبيل أمام المرؤوسين لتقويم آرائهم، ويرشدهم إلى إعانة الرؤساء، ويحذر هؤلاء من الاستبداد.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه لما نزل الأمر السبحاني: ﴿وشَاوِرْهُم في ٱلْأَمْرِ﴾ عقب غزوة أُحد، أفصح بأن الله تعالى ورسوله ﷺ غنيّان عن المشورة. لكن الله أرسله رحمة للأمة، وليؤكد لنا أنه من استشار أصاب، ومن ترك الشورى ضل. ومن ثم تتضح من أمر الله لنبيه بإقامة الشورى -رغم استغنائه عنها وانعدام حاجته إليها- أهمية التزام كل رئيس ومسؤول بها.

ونضع بين أيديكم حفنة من جواهر أحاديث مباركة تملأ الدنيا خيرًا، تشرفت بالصدور عنه ﷺ: "ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد" (رواه الطبراني). "ما شقي عبد قط بمشورة، وما سعد باستغناء برأي" (مسند الشهاب). "إن المستشار مؤتمن" (رواه أبو داود). "واللهِ ما استشار قوم قط إلا هُدوا لأفضل ما بحضرتهم" (رواه البخاري).

لذلك اتفق علماء الإسلام على أن الشورى أصل من أصول الإسلام، وحُكمٌ يَلزم العملُ به. وقد نُفِّذ هذا الأصل مع التنوع في التنفيذ على مدى الزمان، في العهود المتعاقبة وفي مواجهة أوضاع شتى.

الشورى مبدأ أساس

وبدهي أن الشورى ليست مبدأ يتفوّق على الأوامر الإلهية. نعم، الشورى أساس لبعض القوانين والنظم الحيوية، لكنه مقيَّد بالمصادر التشريعية الكبرى. فالإسلام لا يسمح بالتدخل البشري في المسائل التي ورد فيها نص صريح. ففي هذه المسائل لا يُرجَع إلى الشورى إلا لاستشفاف المقاصد التي يعبّر عنها النص. أما القضايا التي لم يرد فيها نص فهي في نطاق الشورى تمامًا. وجدير بالذكر أن ما تم الوصول إليه في الشورى من نتائج وقرارات، مُلزِم إلزامَ النص، ولا يجوز مخالفة ما خلصت إليه الشورى بعد ذلك، أو سرد آراء وأفكار مناقضة لها. فإن وجد خطأ ما في قرار الشورى مع اتفاق الجمهور عليه، فإنه لا يمكن إزالته إلا بشورى مماثلة.

الإنسان الأعقل هو الأعظم اعتدادًا والتزامًا بالمشورة، والأكثر استفادة من أفكار الآخرين. ومَن يكتفي بأفكاره الشخصية في عمله وبرامجه، أو يسعى لفرضها على غيره، لا ينجو من فقدان طاقة حركيةٍ مهمة، ونفور وكره واستثقال ممن حوله لا محالة.

وصحيح أن نصوص الشورى تفيد العموم في معنى من المعاني، لكنها تخصصت أيضًا بتعلق النصوص بمواضيع معينة، وبعمل رسول الله ﷺ وتصرفه. إن النصوص في الإسلام أكدت على قضايا كبرى نبّهت إلى أصول كلية وقواعد عمومية، ولم تفصّل كثيرًا فيما عداها من الأمور الفرعية. أما المسائل التي لم يرد فيها نص، فهي في نطاق الشورى بتمامها ومعروضة على التشاور. فانطلاقًا من وضع الإسلام للمسائل التي وردت فيها أحكام صريحة خارج حدود الشورى، والمسائل التي لم ترد فيها أحكام صريحة داخل حدوده، فإنه يبقى في كل حال من الأحوال مرتبطًا بالإسلام، وموجهًا بالقرآن والسنة، وساعيًا لتحقيق الغايات المُبَيَّنة في كتاب الله ﷻ. ولا شبهة في أن الإسلام يقصد قبل كل شيء غايات عليا، مثل تحقيق المساواة بين البشر، ومحاربة الجهل ونشر العلم، ونسج المسائل كلها حول الهوية الإسلامية، ومنع تناقض المسلم مع ذاته، وتوجيه إنسان الوطن للحفاظ على منزلته ووقاره في الموازنات الدولية، وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الفرد والمجتمع، وتطوير وعي الأمة برمتها -وبجميع أفرادها- في الحب، والاحترام، والاهتمام بِهَمّ الآخر، والتضحية، ورهافة أحاسيس الفيوضات المادية والمعنوية للعيش من أجل الآخرين، ومراعاة الموازنة بين الدنيا والآخرة، وتنظيم السياسة الداخلية والخارجية، ومتابعة التطورات في العالم، وتجهيز مصادر القوة وتحديثها، وإعداد

فـرَق الحرب النفسـية، إلى درجة القدرة علـى مواجهة العالم متـى اقتضى الأمر ذلك. ولم يبرح القادة الكبار ورجال الفكر العظام والفلاسفة العمالقة، معالجة مثل هذه المسائل الإنسانية منـذ قديم الزمان وحتى الآن. ولقد اهتم الرسـول الأعظم ﷺ بهذا المبدأ السـامي في إطار مسـؤوليته التشـريعية والتمثيلية في سنوات حياته السنِيَّة، وأقام على هذا الأساس حياة البشر وأنشـطتهم الثقافيـة ومسـاعيهم وجهودهـم ومناسـباتهم مـع بعضهم البعض، فحقق بهذه الوسـيلة الروابطَ بين مشـاعرهم وأفكارهـم وعقولهـم ومنطقهـم وأحاسيسـهم وقلوبهـم.

وإن للشورى نتائج تبَشِّر بها بخصوصياتها، وقواعدَ توصل إلى هذه النتائج، من جملتها: رفـع المستوى الفكري والوعي التشـاركي في المجتمـع، والتذكيـر بأهميته بالرجوع إلى رأي المجموع في كل حادثة، وتشجيعه على توليد الأفكار البديلة، والحفـاظ على حضور الشـورى وحيويتها من أجل مسـتقبل الإسـلام، وتحقيق مشـاركة السـواد الأعظم في الإدارة بقدر الإمكان في كل مناسبة، وإدامة الوعي بمحاسبة الرؤساء عند اقتضـاء الحاجة، والحيلولة دون تصرفات السّاسَـة الاعتباطية وتحديد تصرفهم.

ولقـد قلنـا آنفًا إن الله تعالى قد أثنى على الصحابة الكرام بالآيـة الكريمـة ﴿وَشَـاوِرْهُمْ فِـي الأَمْـرِ﴾ بناءً علـى الأهمية الحيويـة للشـورى؛ وإنهـا لحمكة بالغة ينطـوي عليها أمر الله تعالى لسـيدنا ﷺ باستشارة أصحابه: ﴿وَشَـاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ والمعركة قد شـارفت على نهايتها، وفي أثقل الساعات شدة، ومـع أصحابه الذين كانوا سبب هذه الشدة.

إن أصل الشورى الذي تشرف بالتنزيل في هاتين الآيتين، أصـل واسـع المرونـة، مُلَـبٍّ لاحتياجـات العصـور، مُتَخَطٍّ لحـدود الزمان. فمهما تغيـر العالم وتعاقب الزمان، وحتى لو رحل الإنسان إلى الفضاء وعمّر مُدنًا هناك، فلا حاجة لزيادة شـيء على هذين النصيـن. وفي الحقيقة إن أصول الإسـلام وقواعـده الأخرى كلها، تمتـاز بالمرونة نفسـها وتتفتح على الكونيـة عينهـا... ولقـد احتفظت بشـبابها وعمليتهـا على مرّ الزمان وستبقى كذلك.

من أسس الشورى

ومن المفيد أن نذكّر ببعض المبادئ المتعلقة بأساس الشورى، وهي:

١- الشـورى حق للرؤساء وللمرؤوسين، ولا رجحان في اسـتعمال هذا الحـق لطرف علـى الطرف الآخـر. وفي أمره تعالى: ﴿وأَمْرُهم شُـورَى بينَهم﴾ دلالة على مساواة الطرفين فـي الشـورى. فأمور المسـلمين شـؤون تتعلق بهـم جميعًا، لذلـك يتسـاوون جميعًا في حـق النظر فيها. لكـن هذا الحق يتغير بتغير الزمان والمكان والحال، ويستتبـع تغيرًا في صورة إجراء الشورى وشكلها.

٢- لما كان الرئيس مكلّفًا بالشـورى في الشؤون المتعلقة بالمجتمـع بموجب الأمـر الإلهي: ﴿وَشَـاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، فإذن يقـع تحت طائلة المسـؤولية إن لم يطرح هذه الشـؤون الداخلة في نطاق التشـاور علـى أهل الرأي. من جهة أخرى، يتحمـل المرؤوسـون وبـالَ كتـم آرائهـم إن لـم يبدوها متى عرضت عليهم هذه الشؤون للتشاور، بل يُعَدّون مقصرين في أداء حقـوق المواطنة إن اكتفوا ببيـان الرأي، ولم يَجْهدوا في الإقناع على الأخذ بالرأي المطروح.

٣- ومن الأسس المهمة: طلب مرضاة الله تعالى وتحري مصلحة المسـلمين في الشـورى، والامتناعُ عن تحريف آراء أهل الشورى عن وجهتها بالرشوة والضغط والتهديد. يتفضل رسول الله ﷺ فيقول: "إن المستشار مؤتمن"، فمن استشير في شيء، فعليه أن يشير وكأنه يشير لنفسه.

٤- قد لا يحصل إجماع في الشورى. فإن لم تتفق الآراء في مسألة إجماعًا، فيُعمَل برأي الأغلبية، فإن الشارع ﷺ يجعل الأغلبيـة في حكم الإجماع حيث يقول: "يدُ اللهِ مـع الجماعة" (رواه الترمـذي)، ويقـول: "إنّ أمتـي لا تجتمـع علـى ضلالة" (رواه ابن ماجه)، ويقول أيضًا: "سألت الله ﷻ أن لا يَجمَـع أمتي على ضلالة فأعطانيها" (رواه الإمام أحمد).

ففـي بياناته هذه ﷺ، ينبّهنا إلـى أن للأغلبية قوة الإجماع، وإلى لزوم اتباع السواد الأعظم. وفي حياته السَنيَّة أمثلة كثيرة على ذلك، منها تشاوره في أوائل بدر وأُحد وأواخرهما.

٥- لا يجـوز مخالفة الـرأي أو اقتراحُ بديلٍ له بعد إقراره بالإجماع أو الأغلبية ما دامت الشورى قد تمت وفقًا لشروطها. فإظهـار الـرأي ضد القرار بحجج شـتى، كادعاء صحة الرأي المخالف أو تسجيل هامش بالمعارضة على أصل القرار، هو إفساد وخيم وإثم كبير. فقد خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد على خـلاف اجتهـاده، موافقًـا رأي الأغلبية، ولم يعلـق بعد ذلك علـى رأي الأغلبيـة مـع ثبوت غلطهم، لا فـي الأول ولا في الآخـر، بـل ومـع إشـارة القـرآن الكريم إلى احتمال مُسـاءلة

أولئك المقربين عن تلك الزلة في أثناء التجهيز لأُحد.

٦- الشورى تشغل كل وقتها لحل المشاكل القائمة، ولا تنشغل بالمشاكل الافتراضية.. إن الحياة الإسلامية تبقى مستمرة في ظل النصوص بداهة وطبعًا، أما الوقائع التي تحصل خارج معالجتها أو الخطط والبرامج الضرورية، فتُؤخَذُ بخصائصها وشروطها، ويُحَلُّ كل حادث أو برنامج في إطار ظروفه وسياقه.

٧- تجتمع الهيئة المشكِّلة للشورى كلما دعت الحاجة، فتبتّ في المشكلات والمسائل وتنجز الخطط والبرامج، ولا تنفك عن العمل حتى إكماله. وليس في أيدينا نص عن إجراء الشورى في دورات زمنية معينة، ولا إشارة إلى إجرائها بأجر ومرتَّب. ونحن غير ملزمين بالتطبيقات الجارية بعد مرحلة التشريع. والمشاهَد أن إجراء الشورى بموظفين من ذوي الرواتب يستجلب معه مشاكل معروفة.

الشورى والمستشارون

الكلام عن الشورى يتطلب الكلام عن المستشارين بالضرورة. لما كان اجتماع الناس كلهم على صعيد واحد للتشاور محالاً، فالضرورة الملزمة هو الاكتفاء بزمرة معينة منهم. كذلك ينبغي أن يمتاز هؤلاء بمؤهلات خاصة بناء على حاجة الشورى إلى العلم والممارسة والاختصاص والخبرة بدرجة كبيرة حسب المواضيع المطروحة للتشاور. وهم من اصطلح العلماء على تسميتهم بأهل الحل والعقد من الكبار المقدَّمين المقتدرين على حل المشكلات. والضرورة تحكم بتواجد أهل الخبرة والاختصاص في المواضيع العلمية والفنية والهندسية المتعددة التي هي من مصالح المسلمين، زيادة على توافر المعاني والروح والعلوم الإسلامية، في الكبار المقدمين من أهل الحل والعقد، وخصوصًا في أيامنا، لتشابك الحياة وتحوّل كل مشكلة إلى مشكلة عالمية. في هذه المسائل يمكن الاعتماد على أهل الاختصاصات المتنوعة في الشورى، بمراعاة التوافق مع الدين حسب تدقيق أعلام علماء الإسلام. وكما أن الشورى مناطة بأهل الحل والعقد، فإن شكل إجرائها بتغير الزمان والأحوال مُناط بهم أيضًا. فنجد حينما نقرأ أوراق التاريخ، تنوعًا في تنفيذ الشورى على مر العصور وتغير الأحوال. فهي تُجرى في دائرة ضيقة تارة، وفي دائرة أوسع تارة، ولا تتجاوز دائرة المدنيين مرة، وتَفتح أبوابَها لأرباب السيف وأرباب القلم مرة أخرى، في أوضاع متنوعة بتقلب عصور التاريخ. وليس ذلك بسبب تعرض هذا الأصل إلى التغيير، بل بسبب المرونة والعالمية التي تجعل الشورى قابلة للتطبيق في كل عصر ومكان.

ومهما تغيرت أشكال إجراء الشورى حسب الزمان والمكان والأحوال، فإن اتصاف الكبار المقدمين بالعلم والعدالة والدراية والنظر والخبرة والحكمة والفراسة ثابت لا يتغير. العدالة هي أداء الفرائض واتقاء المحرمات وتجنب ما يناقض القيم الإنسانية. والعلم هو الدراية والخبرة في الدين والإدارة والسياسة والفن. ولا يلزم أن يكون الفرد نفسه متخصصًا في فروع العلم المتنوعة، لكن اللازم أن تكون الشخصية المعنوية لهيئة الشورى متفتحة على كل هذه المواضيع، ولا مندوحة في الرجوع إلى أهل الدراية من غير علماء الإسلام في الموضوعات المعتمدة على النظر والخبرة. وكما قد تُحمَل الحكمةُ في دلالتها ومعناها على العلم والحلم ومعنى النبوة، كذلك تُصرَف إلى الاطلاع على ما خلف ستار الأشياء والنظر والشعور بالأمور الغائبة عن الناس بنور الفراسة، والقدرة والقابلية والفطانة في حل المعضلات الفردية والاجتماعية. فأهلها قليل ووزنها ثقيل، وتحظى في كل زمان بالتوقير والقبول.

وينبغي التوقف مليًّا عند اهتمام سيدنا النبي ﷺ في حياته السَنيَّة كلها بالشورى، والاحترام لرأي كل امرئ مهما كان سنًّا وعقلاً. فكان ﷺ يرجع إلى آراء الآخرين في كل وقت... ويستأنس بنظرهم ويتحرى عن أقوم السبل لتأسيس خططه وبرامجه على أرض صلبة. فمرة يستطلع نظر أهل الرأي فرادى، ومرة يجمعهم معًا لِيُسند الشورى بالشعور الجماعي. وهذه نماذج من سيرته تنير المسألة:

١- في حادث الإفك استشار سيدنا ﷺ عليًّا وعمر وزينب بنت جحش وبريرة وغيرهم من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؛ فأشار عليّ ﷺ برأي ذهب فيه إلى التفريج عن كربة سيدنا ﷺ، وتوقف عمر وزينب وبريرة وكثير من الذوات المباركة رضوان الله عليهم عند طهارة وزكاة وسمو أمّنا عائشة ﷺ. وقد رويت في مشورة عمر ﷺ محاورة لطيفة وإن انتُقِد سندها؛ فقد سأل رسولُ الله ﷺ عما يراه في أمّنا عائشة ﷺ، فأكّد عمر طهارتها وزكاتها. فلما سأله سيدُنا عن مستند حكمه هذا، أجاب بأنه كان عليه الصلاة والسلام يصلي بهم مرة، فخلع نعله أثناء الصلاة، فلما سُئل عن سبب

خلع النعل أثناء الصلاة، رد بأن جبريل عليه السلام أنبأه بلوثة نجاسة في النعل. فإن كان الله ينبئ عن لوثة نجاسة في نعل رسول الله ﷺ، فكيف يعقل أن لا ينبئ عن شيء يلحق بزوجه ﷺ؟ ولئن تعلق أصل الرواية هذه بشِباك موازين الجرح والتعديل، فالعبرة لا تناقش.

٢- في غزوة بدر استشار الرسول ﷺ المهاجرين والأنصار. فتكلم المقداد رضي الله عنه باسم المهاجرين، وسعد بن معاذ رضي الله عنه باسم الأنصار كلامًا فذًّا رائعًا في نصرة رسول الله ﷺ مُفعَمًا بالإيمان والحماس والتسليم له، فوجّها جماعتيهما إلى تأييد القرارات المتخَذة وإنفاذِها. فهناك جعل رسولُ الله ﷺ عمومَ الناس أصحابًا لقرارات حيوية واستنصر بالوجدان الاجتماعي إلى جانبه.

٣- وفي بدر أيضًا، استشار ﷺ الحُباب بن المنذر والصحب الكرام، عن المنزل الذي ينزله جيش الإسلام والوادي الذي فيه يلقى العدو، وأقر قرارات أنفذها الجيش المسلم، فتغلب على قوة العدو البالغة ثلاثة أضعاف المسلمين أو أربعة أضعافهم في حملة واحدة، عاد بعدها إلى المدينة تحدوه أناشيد النصر.

٤- وفي وقعة الأحزاب استشار ﷺ الأصحاب الكرام، فمال إلى رأي سلمان الفارسي رضي الله عنهم أجمعين، بحفر خندق حيث يظن دخول الأعداء منه إلى المدينة. فكان أنموذجًا للأهمية التي يوليها للشورى.

٥- وفي صلح الحديبية اهتم النبي ﷺ بالشورى اهتمامًا بالغًا، فاستطلع رأي الجماعة، وبعده استشار أمّنا أم سلمة، ثم أبان عن نهجٍ واستراتيجيةٍ حسب الآراء والأفكار التي سارت في استقامة ميوله الذاتية، فغيّر هزيمة لا مفر منها إلى نصر مؤزر في عودته إلى المدينة.

إن التحري في حياته السَنيَّة ﷺ يؤكد لنا مدى أهمية النظر الشوريّ في كل مسألة أو معضلة لم ينزل فيها وحي، والأخذ بها بعد العرض على الوجدان الاجتماعي. وليست مجالس الشورى في دول الإسلام المتعددة بعد ذلك، إلا صورًا مبسطة للشورى الأولى وهيئتها الأولى. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

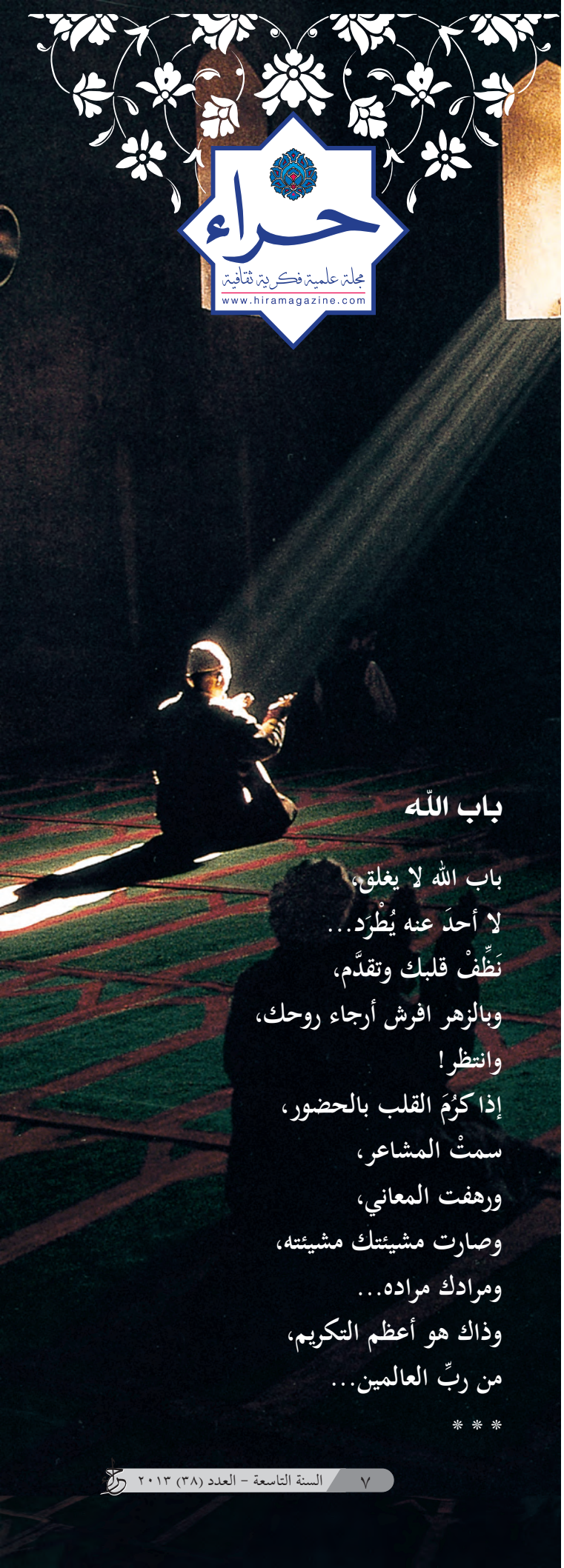

باب اللّه

باب الله لا يغلق،
لا أحدَ عنه يُطْرَد...
نَظِّفْ قلبك وتقدَّم،
وبالزهر افرش أرجاء روحك،
وانتظر!
إذا كرُمَ القلب بالحضور،
سمتْ المشاعر،
ورهفت المعاني،
وصارت مشيئتك مشيئته،
ومرادك مراده...
وذاك هو أعظم التكريم،
من ربِّ العالمين...

* * *

أ.د. عرفان يلماز*

حديث الفيل

مرحبًا أيها الإنسان.. أنا من أضخم الحيوانات التي تعيش على اليابسة، ولا يفوقني في الحجم سوى الحيتان في البحار. لقد خُلقتْ لي أرجل كبيرة تناسب حجمي الضخم. فمالكي سبحانه الذي خلق كل شيء بمقدار، كسا كل حيوان بلباسٍ خاص به وبيئته التي يعيش فيها، وزوده بأجهزة يدافع بها عن نفسه، ومنحه رزقًا يناسب وظائف أعضائه، ووضع فيه هيكلاً عظميًّا وجهازًا عضليًّا يتلاءم مع آليات الحركة والتوازن، وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصى.. أعطاه كل ذلك بأفضل شكل، وأقلِّ كُلفة، وأعلى جودة. ففي أُذنَيَّ الكبيرتين اللتين تشبهان الشراع، وأنفي الطويل الشبيه بالخرطوم، وأقدامي الضخمة التي تشبه الأعمدة، والتناغم والانسجام والتكامل بين أعضاء جسمي الضخم، حِكَم شتى لا يمكن تجاهلها أو إغفالها.

أنياب طويلة

على الرغم من ضخامة جسمي وثقل وزني، فإني حيوان أَنِفٌ ونشيط في الوقت نفسه. وما لم أتعرض للأذى أو الإثارة، فلا ضرَر مني. بسهولة أتصادق مع الناس. وقديمًا كنتم تعتمدون على نقطة ضعفي هذه، وتستخدمونني في حروبكم بدلاً من دبّابات اليوم. وأحمد الله حمدًا كثيرًا أنْ علّمَكم فطوّرتم تقنياتكم، وأنجاني من بين أيديكم كسلاح يقتل الإنسان. وإني راضٍ كلّ الرضى بأن تستخدموني دائمًا في نقل الجذوع والخشب وفي سحب العرَبات المعطّلة المعطوبة، فذلك أحسن من القتل بكثير.

لا أفرح كثيرًا لعدم أكلكم لحمي؛ لأن ما يلحقني من البليات بسبب أنيابي أعظم. فقد منحني الله سبحانه أنيابًا قوية لا توجد عند غيري من الحيوانات، وذلك للدفاع عن نفسي وإزالة العقبات التي يمكنها أن تعترض طريقي. وأنيابي في الأصل مثل أسنانكم، مركّبة من عظم خاص من مادتي "المينا" و"العاج"، إلا أنها كبيرة وضخمة مما يجعل بعضكم يسعى وراءَها ويتخذها زينة له أو لبيته. لو كنتم تأخذون أنيابي بعد مِيتتي الطبيعية فلا أبالي، ولكن لا أفهم لماذا تقتلونني وأنا صحيح معافى أسعى وأذكر الله في أرضه الواسعة! أوَما يؤلمكم ضميركم وأنتم تقتلون حيوانًا بريئًا من أجل بضعة نقود! حتى نحن الحيوانات، لم نصل إلى هذا المستوى من الوحشية كأمثال بعضكم! ففي الوقت الذي يقتات فيه معظم أنواعنا على الحشائش والنباتات، تكتفي الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور، باصطياد الحيوانات الضعيفة ما يكفيها لإدامة عيشتها! فمَن أظلم يا تُرى في هذه الحالة؟ تحملون أحدث البندقيات ذات المناظير الدقيقة،

وتطلقون الطلقات النارية الخاصة بقتلي، ثم تلتقطون الصور الفوتوغرافية عند جثتي وكأنكم حققتم نصرًا مؤزرًا! فليصوروا ما شاؤوا.. لعل هذه الصور تُستخدَم يوم الحساب الأكبر دليلاً عليهم. أعتذر لحدّة أسلوبي هذا اعتذارًا شديدًا، وأعتذر أيضًا لخروجي عن الموضوع الذي كنت سأتحدث فيه عن خلقتي العجيبة وتزويدي بالأعضاء البديعة.

خرطوم عجيب

ربما كان خرطومي أول عضو تذكرونه عندما يقال "الفيل"، لأني أتفرد به بين الحيوانات. فأنصار نظرية التطور لم يجدوا حتى الآن تفسيرًا لخرطومي الطويل هذا، لأنهم يحتاجون من أجل ذلك، إلى حيوان وسيط يشبهني بخرطومه -لدرجة ما- ليدّعوا أني تطورت صدْفةً عن حيوان آخر. إنهم يدركون تمام الإدراك أنْ لا يمكن لهذا الخرطوم الطويل أن يتكوّن نتيجة تحوّلات فُجائيّة. كما أنه من الصعب جدًّا أن يتقبّل العقلاء تحوّلَ أنفٍ قصيرٍ إلى خرطومٍ طويلٍ عبر التبدّلات الزمنية مهما كانت الظروف! وهل يُعقل أن يتحوّل أنف طبيعي قصير إلى خرطوم طويل؟! وهل يمكن للتحوّلات العشوائية التصادفية أن تنتج عضوًا متقَنًا سويًّا صالحًا للاستعمال بهذا الشكل؟! فخرطومي في روعته وإتقانه، بعيد كل البعد عن التصادف.

أنتم البشر تمسكون بأيدي صغاركم وتتجوّلون، ولكن صغارنا نحن الفيلة تتجوّل بمسك ذيلنا بخراطيمها حتى لا تضيع. إن خرطومي حساس جدًّا في شم الروائح؛ حيث أستطيع أن أنصُبه وأشمَّ رائحة أسد أو إنسان على بُعد كيلومترات عديدة. يتكون خرطومي من استطالة شفتي العليا، وقد امتدتْ عضلات وجهي لتمتزج بعضلات الخرطوم. فإن هذه العضلات الممتدة بعضها حتى الجمجمة وبعضها الآخر حتى الأماميّتين، تتحرك في جميع الاتجاهات بقوة كبيرة، وذلك بدعمٍ من عظام الأنف والعظام الأخرى للجمجمة. تبطن فتحتَي أنفي بما يزيد عن عشرة آلاف مجموعة عضلية صغيرة تتحرك بشكل مترابط، ولأن عضلاتي تشكّل طبقة كثيفة طولاً وعرضًا، فإنني أتمكن من تحريك خرطومي في كل الاتجاهات بسهولة. ومع أن خرطومي مغطّى بطبقة سميكة من الجلد، فإنه مزود كذلك بحشد كبير من الأعصاب الحساسة تجعل حاسة اللمس فيه قوية. وهكذا فإن خرطومي عضو متعدد الوظائف لا ينحصر بعملية التنفس فقط، بل أفرك به عيني، وأحب به صغيري، وأرفع به جذوع الأشجار الكبيرة وأحملها في يسر، كما أستطيع بخرطومي التقاطَ قشَّة النبات الواحدة من الأرض أيضًا، وبخرطومي أيضًا أثني أغصان الشجر وأكسرها، وأتمتع بنتوء على فتحة خرطومي أستعملها كما تستعملون أصابعكم. بينما ينتهي خرطوم الفيل الأفريقي بِنَتْأَتَين متقابلتين، فإن الفيل الآسيوي ينتهي خرطومه بِنَتْأَةٍ واحدة. إن خرطومي باختصار، عضوٌ حياتيٌّ كالذراع، لا يمكنني الاستغناء عنه أبدًا. وإذا ما أصابه شيء خطير، أبقى بلا ماء ولا شراب، ولعلني أموت من الجوع.

مقارنة بالثدييات الأخرى، فإن كتلة جسمي تتناقض مع مساحته الإجمالية. والقاعدة تقول إنه كلما كبُرت المساحة وصغُرتْ كتلة الجسم، ارتفع الفاقد الحراري للجسم، ولذلك جعل ربي -بعلمه المطلق وقدرته العظيمة- للحيوانات القطبية آذانًا وأنوفًا صغيرةً للإقلال من كمية الفاقد الحراري، وفي المقابل ينبغي أن يكون الفاقد الحراري كبيرًا في المناطق الحارة. فجسمي الكبير ينتج في استقلاباته كميات كبيرةً من الحرارة، وعليّ أن أطرح هذا الفائض الحراري خارج الجسم، لكن صغر مساحة جسمي -مقارنة

بجثتي الكبيرة- وسماكة جلدي، يشكلان عائقًا كبيرًا، إذ ليس في جلدي مسامات عَرَقٍ مثلكم، هذا ما يجعل جسمي غير مناسبٍ للتبريد. فما الذي يحدث إذن؟ هل سأنفجر من الحرّ وأَحترق؟ وهل ترك ربي الرحيم العليم القدير أحدًا من خلقه مظلومًا حتى يتركني أنا؟!

أذن مروحية

خلق ربي الجلد خلف أُذنَيّ العريضتين رقيقًا جدًّا. وإنْ كانت سماكة جلدي في أقسام جسمي المتبقّية تبلغ (٢,٥) سم، فإنه رقيق جدًّا حول الفم ومنطقة الشرج والأذنين. وفضلاً عن رقّة الجلد في المناطق الخلفية لأذنَيّ، فإن هذه المناطق غنية جدًّا بالأوعية الدموية أيضًا. فعندما يمر دم الجسم الساخن من هذه المناطق، أقوم بتحريك أُذُنَيَّ العريضتين مثل المروحة أو الرّادْياتور لأتمكّن من فقدان الحرارة ومن ثم من تبريد دمي وجسمي في آن واحد. ليس هذا فحسب، بل أستخدم أذنَيّ أيضًا للاتصال والتواصل بأصدقائي والدردشة معهم. وعندما أصاب بالانفعال أقوم بتحريك أذنَيّ بسرعة أكبر، وبالتالي أعبّر بهذه السرعة عن فرحتي وليس عن غضبي كما تعتقدون أنتم البشر. وعند شعوري بالخطر، أرفع أُذُنَيَّ وأحركهما بوتيرة مختلفة وفقًا لدرجة الخطر القادم. وينبغي لصغارنا أن تتعلم قبل كل شيءٍ لغة الأُذُنين هاتين بشكل جيد. هذا وقد يختلف حجم الأذنين تبعًا لحاجة الفيل للتبريد؛ فآذان أقراني الذين يعيشون في المناطق الجافة تكون أكبر حجمًا من آذان الذين يعيشون في الغابات.

وبفضل هذا التصميم العظيم لآذاننا، أسمع الأصوات ذات الترددات المنخفضة التي لا يمكنكم سماعها، وأستطيع التواصل مع أصدقائي على بعد ثماني كيلومترات، وأرسل لهم أصواتًا في ترددات مختلفة لا تسمعونها أنتم البشر.

رائحة إفراز الغدد الصدغية في رأسي، تعطي فكرة عن حالتي الفيزيولوجية. كما تعطينا هذه الروائح معلومات عن الجاهزية والتراضي لشراكة الحياة أثناء فترة التكاثر. نعم، أقوم في فترة التكاثر بتوجيه دعوةِ التزاوج لجنسي الآخر من خلال حركة الآذان المروحية ورائحة إفراز الغدد الصدغية.

يعيش في عالم اليوم من الفيلة نوعان. فأنا الذي أعيش في أفريقيا (Loxodontaafricana) أَزِن حوالي ٦-٧ طنًّا، وأرتفع ٤ أمتار عن الأرض. أما أبناء جلدتنا الذين يعيشون في الهند وجنوب شرق آسيا (Elaphasmaximus) أصغر مني حجمًا، ويتراوح وزن أحدهم ٥-٥,٥ طن، وارتفاعه ٣,٢ متر. شكل الرأس والأذنين من أهم الخصائص التي تميزنا عن بعضنا البعض، إذ أذناي أكبر من أذنَي الفيلة الأسيوية؛ وجبهتي تتقعر قليلاً نحو الداخل؛ في حين جبهة إخوتي الآسيويين تتحدب قليلاً نحو الخارج. وإذا كانت الأكتاف لديّ أعلى نقطةٍ في جسمي، فإن أعلى نقطة في جسم أخي الآسيوي هي قمة رأسه. يستوي الإناث والذكور لدينا من حيث تمتعنا بأنياب طويلة حادة في الفك العلوي، إلا أن الإناث لدى إخوتنا الآسيويين لا تملك هذه الأنياب أبدًا. وبالتالي فإن هناك اختلافًا في ضروسنا لا يعرفها إلا الباحثون المتخصصون المحترفون.

تصميم بديع

إن كتلتي الضخمة تجعلني أشعر بوطأة الجاذبية الأرضية أكثر من غيري من الحيوانات البرية والبحرية، ولذلك يشكل وزني الثقيل ضغطًا كبيرًا على مفاصلي وموطئ قدميّ. لو كنتُ من الحيوانات البحرية لَاستفدتُ من قوة رفع الماء ولَتدبرتُ أمري بسهولة كما تفعل الحيتان. ولا شك أن المشي على اليابسة مع حمْل جسمي الضخم الثقيل ثم تحريكه، يتطلب تصميمًا معماريًّا متقنًا وبديعًا. لذلك وُضعتْ الفقرات بتصميم خاص على شكل قَنْطرات سقفية بين الكتفين والفخذين وكأنها جسرٌ من حجر. ولمنع الضرر على عظامي ومفاصلي أثناء وطأة أقدامي على الأرض مع الضغط الكبير، تم وضع نسيجٍ ضامّ على قاعدة أقدامي وبين أصابعي، مما يلعب دور وسادة تمتص الضغط الكبير على أقدامي وتخففه. ولعل الكثير منكم لا يعرف أني أسير على أصابعي؛ فعظام أصابعي متصلة ببعضها بروابط قوية، ومبَطَّنة بنسيجٍ ليفيّ ماصّ

للضغط، وبذلك تتوسع المساحة الأرضية ويخف الضغط. وهذا الأمر يشبه ممتص الصدمات في سياراتكم التي تركبون عليها. أُعتَبر من أفضل السبّاحين بين الثديات البرية نسبة إلى جثتي الضخمة. صغارنا تتقن السباحة منذ الصغر من غير تعليم. فنحن الفيَلة نحب كثيرًا اللعب في الماء والتمرغ في الأوحال، حيث نقوم عبر خراطيمنا بطلْي أجسامنا بالأوحال بعناية فائقة. ربما هذا يؤدي عندكم إلى الاشمئزاز منّا، ولكننا مضطرون إلى ذلك، إذ لا نملك في جلودنا مسامات تَعرُّقٍ تمكّننا من تبريد أجسامنا، وبالتالي نتقي بهذه الأوحال من حرَّ الشمس وأشعتها فوق البنفسجية الحارقة، وأيضًا من الحشرات القارصة. يكتسب جلدي لونه الرمادي لعدم وجود مولدات الصبغيات (البيغمانت) الملوّنة، وهو لون الوحل الذي نتمرغ فيه. فلون الجلد يختلف باختلاف لون الطين الذي نطلي به أجسامنا. الشعر في جلدي قليل جدًّا، وهو متناثر على أطراف فتحات العين والأذنين والوجنتين والذيل ومختلف أنحاء جسمي. ولأن هذا الشعر القليل المتناثر مرتبط بالعصب، يقوم بدور إشعاري بكل الحركات التي تبدر مني.

يبلغ عدد أسناني ٢٦ سنًا؛ يبرز منها ما ترونه من النابين الضخمين الممتدين من الفك العلوي، و١٢ ضرسًا كبيرًا، و١٢ ضرسًا صغيرًا. وإذا كانت أسنان الثديات عمودية على سطح الفكين، فإن أسناني أفقيّة متوجهة نحو الأمام. فصغارنا تولد وأسنانها موزعة على الفكين العلوي والسفلي؛ ففي كل نصف من الفكين يوجد سنّان أو ثلاثة أسنان، وتزحف بالتدريج نحو الأمام مع مرور الزمن. تتساقط أطراف الأسنان العلوية داخل الفم عند النمو، وربما يبتلعها الصغار. تتبدل أسناني على شكل مجموعات في خمس دفعات؛ فتظهر الأسنان الأولى عندما أبلغ الثانية أو الثالثة من العمر، والدفعة الثانية ما بين الرابعة والسادسة، والثالثة ما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، والرابعة ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين، والخامسة ما بين الأربعين والخامسة والأربعين، ويظهر ضرسي السادس عندما أبلغ الثالثة والأربعين، ويظل طيلة حياتي دون أن يتبدل. متوسط عمري في الأصل مثلكم تمامًا، يتراوح ما بين ٦٠-٨٠ سنة.

أذكى الحيوانات

يستطيع خرطومي نقل تسعة ألتار ماءٍ إلى فمي بدفعة واحدة، كما أعتمد عليه في طلْي جسمي كله بالطين. وبالتالي أُعتبَر

الأذكى بين الحيوانات؛ فعلى الرغم من أن حجم دماغكم يبلغ ١٣٥٠-١٤٠٠ سم^3 وبنسبة ٢٪ من أوزانكم، فإن دماغي يبلغ ٦٦٠٠ سم^3 وبنسبة واحد بالألف من وزني. فخالقي ذو القدرة المطلقة، منحني ما يكفيني من الدماغ لأنجز أعمالي الكثيرة في يسر وسهولة دون خطأ. كما أن نصفي الدماغ الأساسيين لديّ ومُخَيْخِي كثيرة التعرّج، وتشكل الفصوص الصدغية مركز الذاكرة لدي. خلال الحمل وقبل الولادة ينمو دماغي بنسبة لا تتجاوز ٣٥٪، ثم أعيش في كنف الوالدين عشر سنوات، ويستمر دماغي في النمو طيلة سبعة عشر عامًا أتعلم خلالها شؤون الحياة المختلفة التي سأعيشها.

نحن الفيلة نحترم موتانا؛ وربما تقف الأنثى يومين أو ثلاثة أيام عند صغيرها المتوفى حزنًا عليه. يستمر الحمل عند الإناث ٦٦٠ يومًا، وتتراوح المدة بين حمل وآخر ما بين ٤-٦ سنوات. وبينما يبلغ الذكور في سن السابعة عشر، تستعد الإناث للأمومة في سن ما بين ٨-١٣ عامًا. ولابد في هذا المقام أن أذكّركم بأن إناثنا في نصف حجم ذكورنا.

عزيزي الإنسان.. ها قد حدثتُك بعقلي المحدود بما فيه الكفاية، وأنت بعقلك الإنساني الرفيع وقلبك الواسع وبصيرتك الحادة وبتفكيرك وتدبرك، كن من ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا.

أ.د. علي جمعة*

توليد العلوم
من أجل تفاعل مبدع مع العصر

حضارة المسلمين قامت على العلم، ووضَع المسلمون الأوائل علومًا خادمة لمحور حضارتهم وهو النص الشريف، التزموا بهذا المحور وخدموه وانطلقوا منه وجعلوه معيارًا للقبول والرد والتقويم. وأخذ المسلمون يخترعون العلوم اختراعًا، وينقلون منها عن الأمم السابقة ما يمكّنهم من فهم الحقيقة وإدراك الواقع ونفس الأمر، ويصنّفونها ويبلغونها لمن بعدهم ولمن بجوارهم. ورأينا عصر الترجمة في عهد المأمون، ورأينا البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة ممدوحة في العقل أو مرذولة"، ورأينا الخوارزمي في كتابه "مفتاح العلوم" وهو الذي يرسم لنا الذهنية والعلمية في التاريخ الإسلامي ويرصد ذلك التنوع من ناحية، والتفاعل من ناحية أخرى. وهما الصفتان المجمع عليهما لكل من اطلع على التراث الإسلامي ونتاجه الفكري.

فتوليد العلوم، كان سمة أصحاب ذلك الدين حتى القرن الرابع الهجري، بل امتد ذلك التوليد إلى القرن السادس؛ حيث وضع عضد الدين الإيجي علمًا جديدًا أسماه بعلم "الوضع"، استلّه من علم اللغة والنحو والأصول والمنطق، عالج فيه -أهم ما عالج- قضية المصطلح التي تعد من أهم القضايا العلمية حتى يومنا هذا، حيث تعد ضابطًا علميًّا

للحفاظ على لغة العلم والتفاهم بين الجماعة العلمية بما يضمن أمرين: أولهما هو نقل العلم لمن بعدنا، وثانيهما هو تطوير العلم بصورة مطردة مستمرة ومنضبطة في نفس الوقت. ثم خبا هذا التوليد وانشغل العلماء بتكرار الموروث والحفاظ عليه من الضياع، كرد فعل لما حدث في القرن السابع من غزو التتار وسقوط بغداد (٦٥٦هـ).

ودعا محمد رشيد رضا في مجلة "المنار"[1] إلى إحداث علم جديد يَدرُس السنن الإلهية التي وردت بالقرآن الكريم، ولم يتم ذلك حتى بعد مضي أكثر من مائة عام على تلك الدعوة. فلابد علينا أن ندرك أن توليد العلوم نوع من أنواع مظاهر حياة الفكر وأنه لم يمت، وهو أيضًا مظهر من مظاهر التفاعل مع العصر الذي نعيشه، وهو ثالثًا الجسر الذي يصل بين الشرع وبين الواقع المحيط. ويسأل كثير من المخلصين عن كيفية توليد العلوم، وهي تحتاج إلى قدرة التصور المبدع، وهي التي قد لا توجد عند كثير ممن اشتغل بنقل العلم والحفاظ عليه.

لابد علينا أن ندرك أن توليد العلوم نوع من أنواع مظاهر حياة الفكر وأنه لم يمت، وهو أيضًا مظهر من مظاهر التفاعل مع العصر الذي نعيشه، وهو ثالثًا الجسر الذي يصل بين الشرع وبين الواقع المحيط.

التصور المبدع

التصور المبدع، هذا الأمر لابد منه لعملية الاجتهاد، وعدَّه الأقدمون ركنًا من أركانه. ولذلك فإنّ فقده يدل أيضًا على خبوت العملية الاجتهادية التي تنبثق أساسًا من ملكة قائمة بنفس الفقيه. وتأكيدًا لهذا المعنى، نرى السيوطي في كتابه "الرد على من أخلد إلى الأرض، وجَهِل أن الاجتهاد في كل عصر فرض"؛ يقول في الصفحة ١٦٩ ما نصه: "قال ابن برهان: لا ينعقد الإجماع مع مخالفة مجتهد واحد خلافًا لطائفة، وعمدة الخصم أن عدد التواتر من المجتهدين إذا اجتمعوا على مسألة، كان انفرادُ الواحد منهم يقتضي ضعفًا في رأيه، قلنا ليس بصحيح؛ إذ من الممكن أن يكون ما ذهب إليه الجميع رأيًا ظاهرًا تبتدر إليه الأفهام، وما ذهب إليه الواحد أدقَّ وأعوص، وقد يتفرد الواحد عن الجميع بزيادة قوة في النظر ومزية في الفكر، ولهذا يكون في كل عصر مقدم في العلم، يُفرّع المسائل، ويولّد الغرائب". اهـ.

ثم ينقل قولَ الغزالي من كتابه "حقيقة القولين" صفحة ١٨١ فيقول: "قال الغزالي في كتاب "حقيقة القولين": وضعُ الصور للمسائل ليس بأمر هين في نفسه، بل الذكي ربما يقدر على الفتوى في كل مسألة إذا ذُكرت له صورتها، ولو كلف وضع الصور وتصوير كل ما يمكن من التفريعات والحوادث في كل واقعة عجز عنه، ولم تخطر بقلبه تلك الصور أصلاً، وإنما ذلك شأن المجتهدين".

ولنضرب مثلاً يجيب على أولئك الذين يريدون نموذجًا لتوليد العلوم حتى يسيروا على منواله، وحتى يُهدّئ بال من يشك في هذه العملية وما قد تخفيه في ظنهم من الاعتداء على ثوابت الدين أو القدح في هوية الإسلام، فنحاول أن نلقي الضوء على بذور توليد العلوم وآليات ذلك في التراث الإسلامي، عسى أن ندرك المنهجية التي ساروا عليها في خدمة حضارتهم.

وبالمناسبة، فإن المنهج في ظني، رؤية كلية ينبثق عنه إجراءات، وهذه الرؤية الكلية هي النموذج المعرفي، أما الإجراءات فهي منهج البحث العلمي الذي نراه عند الأصوليين، حيث يعرّف الرازي ومدرسته أصول الفقه بأنه: "معرفة دلائل الفقه إجمالاً، وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد" يعني تكلّم عن مصادر البحث الفقهي، ثم تكلّم عن كيفية البحث وطرقه، ثم تكلّم عن شروط الباحث. وهي الأركان الثلاثة بحالها التي اتخذت فيما بعدُ منهجًا علميًّا كما قرره "روجر بيكون"؛ المصادر والطرق والباحث.

الدين والعلم

وقبل أن نخوض في آليات توليد العلوم، يجب علينا أن ندرك بعض الحقائق عن موقف الدين من العلم. لا نقول إن الإسلام دين العلم فحسب، بل نرى موقفه من البحث العلمي، حيث أرى أنه لا حرج ولا قيد مطلقًا على البحث العلمي، فليبحث من شاء فيما شاء وليحاول أن يدرك حقيقة العالم كما شاء، ويكشف عن خلق الله في كونه كما يريد، وأن ذلك ضمانة للإبداع، وهذا مؤسس على أن الله قد أنزل أول ما أنزل: ﴿اقْرَأْ

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾(العلق:١-٤). وذكر أن القراءة الأولى في الوجود، والثانية في الوحي، وأنهما قد صدرا عن الله ﷻ؛ الأولى من عالم الخلق، والثانية من عالم الأمر: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف:٥٤). وعلى هذا فلا نهاية لإدراك الكون؛ حيث إنه يمثل الحقيقة، لأنه من عند الله ولا نهاية لإدراك الوحي، قال رسول الله ﷺ: "لا تنتهي عجائبه، ولا يَخلَق من كثرة الرد" (أخرجه الترمذي). وأيضًا لا تعارض بينهما حيث إن كلاً من عند الله، وهذا التأسيس يتأكد في قوله تعالى على صفة الإطلاق: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(الزمر:٩).

السقف الأخلاقي للتطبيق

إلا أن استعمال المعلومات، يجب أن يكون تحت السقف الأخلاقي للتطبيق المأخوذ من مهمة الإنسان في الدنيا؛ العبادة، والعمارة، والتزكية. هذا السقف الذي يمنع من استعمال ما يوصلنا إليه فيما يخالف الأوامر والنواهي الربانية، أو يكر على المقاصد الكلية بالبطلان فنكون بذلك من أهل التعميل لا من أهل التدمير. وهذا السقف للاستعمال من الأهمية القصوى، حيث هو الضمان الوحيد لتلك العمارة.

إن الفصل بين حرية البحث للوصول إلى صحيح المعرفة، وبين تقييد الاستعمال للوصول إلى العمارة، أمر قد اختلط على كثير من الناس مع وضوحه وتأكيده.

ومن الحقائق أيضًا، أن العلوم لها صورة كليّة تتمثل في عملية متكاملة من التعليم لإدراك المعلومات، والتربية لإقرار القيم، والتدريب لتنمية الملكات... وأن هذا كلٌّ لا يتجزّأ، أو لو تجزّأ لفقدنا "دليل التشغيل" إن صح التعبير، وفقدُ دليل التشغيل يوقع في حيرة واضطراب. ويبدو أننا قد فقدنا دليل التشغيل هذا في كثير من جوانب حياتنا، ليس العلمية فقط، بل أيضًا السياسة والاجتماعية والدينية.

ومن الحقائق أيضًا، أن فَرقًا بين علم الدين وبين التدين. فالأول تقوم به جماعة علمية وله مصادره ومنهجه. والعملية التعليمية لها أركانها التي يجب أن تكتمل بعناصرها الخمسة؛ الطالب، والأستاذ، والمنهج، والكتاب، والجو العلمي. أما الثاني وهو التدين، فهو مطالب به كل مكلّف لتنظيم علاقته مع نفسه وكونه وربّه.

ومن الحقائق أيضًا، أن هناك فرقًا بين الفقه والفكر. فالفقه موضوعه "فعل المكلف"، ويهتم علم الفقه بوصف أفعال المكلّفين بالإقدام عليها أو الإحجام عنها، وأن هذا حلال وهذا حرام بأحكام شرعية خمسة وهي؛ الواجب، والمندوب، والحرام، والمكروه، والمباح. وأما الفكر فموضوعه "الواقع المعيش النسبي المركب المتغير". وهذا الفكر يرتّب فيه الإنسان أمورًا معلومة كمقدمات، ليتوصل بها إلى شيء مجهول كنتيجة. والعملية الفكرية هي الجسر الذي بين الشرع والواقع، ولذلك تحتاج إلى علوم تجدد وتولد كل حين، حيث إن طبيعة الواقع الذي نريد أن ندركه، شديدة التعقيد والتغيير.

فإذا تقرر كل ما سبق، فإن التراث الإسلامي وضع ما يسمى بالمبادئ العشرة، من أجل أن يطلع عليها طالب العلم؛ ليتشوف للعلم الذي سوف يدرسه، أو ليعرف ما لابد له من معرفته، وهي بذاتها هي العناصر التي يجب الالتفات إليها عند توليد العلوم.

ووضعها بعضهم في صورة نظم يحفظه صغار الطلاب حتى يحدث لهم هذا التشوف الذي انحسر بعد ذلك عند المسلمين في التلقي دون إنشاء العلوم واستمرار الفكر، قال:

من رام فنًّا فليرم أولاً
علمًا بحده وموضع تلا
وواضع ونسبة وما استمد
منه وفضله وحكم معتمد
واسم وما أفاد والمسائل
فتلك عشر للمنى وسائل
وبعضهم فيها على البعض اقتصر
ومن درى جميعها انتصر

فالمبادئ العشرة هي؛ تعريف العلم، وموضوعه، ومن الذي وضعه، ونسبته إلى العلوم الأخرى، ومن أي العلوم يستمد، وأحكامه، ومسائله، وما فضله، وما حكمه، وما اسمه، وما الثمرة والفائدة المترتبة عليه. فهذه العشرة تعدّ مدخلاً للعلم، تدفع طالب العلم إلى التشوف لدراسته وتحصيله، وهي بنفسها التي يمكن للمفكر إذا أراد أن يبني علمًا، أن يحددها كبداية لاستقلال العلوم أو إبداعها. ■

(*) مفتي الديار المصرية السابق.

الهوامش

(١) العدد ٢٦، ٣ جمادى الأولى ١٣١٧هـ (٩ سبتمبر ١٨٩٩م)، في مقالة بعنوان "كرامات الأولياء".

تحليل كتاب

أ.د. عماد الدين خليل*

الضاربون في الأرض

قراءة في كتاب الأستاذ أديب الدباغ

يدق الأستاذ "محمد فتح الله كولن" من خلال فكره على أبواب القلب، يَطرق ويديم الطرْق: "افتح يا قلب... دعني ألج بكلماتي إليك، دعني أعالج أغلاق خزائنك، دعني أكشف عن أسرار مداخلك... دعني أطلق قواك الخفية وأدير مفتاح الفهم عن الله في روحك... دعني أبتعث فيك مواجيد الحنين، دعني أنفض عن أهداب روحك نعاسَ السنين... دعني أشق أكفان الموت عنك، دعني أبدّد ضبابيات الأرض التي تغشى وجودك... دعني أنقش صورة الآخرة على صفحة الشغاف منك، دعني أعرف ذاتك بذات الكون... دعني أعقد معرفة بينك وبين الطبيعة، وصلحًا بينك وبين شقيقك الإنسان".

تلحظهم جيدًا؛ كنتَ قد سمعتَ عنهم كثيرًا، ولكنك الآن تراهم معك وقبالتك... هذا العشق المتفرّد للكلمة، للإبحار اليومي في أوقيانوس الفكر والثقافة... هذا التوق لجعل كل الأشياء والمفردات والظواهر والموجودات، تتشكل وتبدأ رحلتها في عالم التنامي والصيرورة والإبداع تحت مظلة الله... إنهم يعرفون جيدًا -ربما أكثر من غيرهم- أنه ما من شيء في هذه الدنيا إلا وقد قال فيه هذا الدين المدهش كلمته، أو بعبارة أخرى، إنه ما من ظاهرة أو شبكة من المعطيات إلا وهي مخترقة بقوة الإيمان الإسلامي المتعقّل حتى النخاع... مكشوف عنها النقاب لكي ما تلبث أن تصير تحت الضوء، تحت الضوء تمامًا. ومن ثم فإن أي قدر من العتمة أو الضباب، قد يكون دافعه وجود خلل ما في العين البشرية، أو في نسيج الظاهرة نفسها... أما في الجانب الآخر، فإن الإسلام قادر في أي لحظة -إذا أُحسن التعامل معه- على أن يعيد الأشياء إلى مكانها الحق، وأن يضعها في محلّها تمامًا...

في الكيمياء، في الفيزياء، في الطب، في الهندسة، في النفس، في المجتمع، في السياسة، في الاقتصاد، في القانون

وفي الإدارة... كل كتل هذا الكون ونظمه، كل صلابته المدمكة وخفقانه المدهش... في مجاري الأفلاك والسدم والمجرات والشموس والأقمار، في منسربات البروتونات والنيوترونات... هنالك دائمًا كلمة الله الآمرة التي تشكل الأشياء والظواهر والموجودات وتقول لها "كوني" فتكون.

هم يعرفون هذا جيدًا... وأنت تلمح في عيونهم هذا التوق المكافح للالتحام الذي ضيعته العلمانية الملحدة... وها هم الآن (تلامذة كولن) يسعون بدءًا من أعلى الهرم الذي يتصاعد بنيانه بـ"اسم الله"، وصولاً إلى قواعده السفلى التي تجاهد لإرسائه على بركة الله.

يجعلونك تنغمر معهم في العشق المتفرّد... أن تفرد شراعك وتبحر معهم بما وسعك ووسعهم من جهدٍ في دنيا الله، التي يلتقي فيها العلم في أقصى حالات تعقلنه بالإيمان في أشد لحظات توهجه... هناك حيث يصير الفعل المعرفي صلاةً وصيامًا وحجًا.

وفي كل مرة يجد الإنسان نفسه قبالة العيون المعلقة بالكلمة، تحاول بعشق وشغف أن تخترق قشرتها الخارجية لكي تمضي إلى الجوهر والمغزى فتعانق الحقيقة في أقصى حالات ألقها وتكشفها.

يومًا بعد يوم تزداد الحاجة الأكاديمية والثقافية إلى التحقّق بمبدأ التكامل المعرفي الذي يدعو إليه ويتحقق به "فتح الله كولن" في كل أعماله... وبخاصة بعد ذلك الاندفاع المرتجل وغير المدروس باتجاه الاكتفاء بالمعرفة التخصصية في هذا العلم الإنساني أو الإسلامي أو ذاك، بل والذهاب أبعد باتجاه ما أطلق عليه التخصّص الدقيق الذي يعني الإلمام بهذه الحلقة أو المفردة أو تلك من حلقات ومفردات هذا العلم أو ذاك. وهي مسألة ضرورية -بكل تأكيد- من أجل إتاحة الفرص المعمقة للكشف والإضافة والإبداع في ذلك المجال. ولكن هذا لا يبّرر -بحال من الأحوال- الاعتقال في خانة التخصص الدقيق الذي لا يملك معه أصحابه فضاءً معرفيًا واسعًا، ولا خزينًا ثقافيًا خصبًا يمكّنهم، ليس فقط من المزيد من الإبداع في مجال تخصصهم الدقيق، بل والحضور المؤكد في ساحات الثقافة، والقدرة على إرفادها بالمزيد.

> **إنهم "فتية إيمان... بواطنهم موّارة بآلام أمة، وأحزان قرون، ودموع أجيال، ومآسي أزمان... لكنهم غير مثبَّطين ولا مُحبَطين ولا يائسين... الآمال من وجوههم طافحة، والبُشريات على ألسنتهم منهالة... يعملون... يجِدّون.**

إننا نتذكر هنا علماء الرياضيات والفيزياء والكوزمولوجي الغربيين الكبار؛ "أينشتاين" و"ألفرد نورث وايتهيد" و"برتراند رسل"، كما نتذكر فلاسفة العلم الكبار؛ "ألكسيس كاريل" و"سوليفان" و"أغروس" و"ستانسيو" و"هويل" وغيرهم كثيرون... كانوا جميعًا يملكون رؤية معرفية متكاملة مكّنتهم، ليس فقط من الإمساك جيدًا بحلقات تخصصهم الدقيق وتقديم الكشوف المدهشة في مجاله، وإنما منحتهم الفرصة للإسهام الفعّال في معترك الحياة العلمية والثقافية على امتدادها.

ونتذكر قبالة هذا، حشدًا هائلاً من المتخصصين في العلوم الإنسانية أو الإسلامية، من حملة الماجستير والدكتوراه، بل وحتى الحاصلين على درجة "الأستاذية"، تسمع لهم جعجعة ولا ترى لهم طحينًا... فهم يعانون من الضمور وعدم القدرة على الاكتشاف والإبداع والإضافة في الإثنين معًا؛ تخصصهم الدقيق وثقافتهم العامة... فهم أشبه بالمنبت الذي لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى. وإنك إذا أخرجتهم من دائرة تخصصهم الدقيق باتجاه هذا الحقل المعرفي الموازي أو ذاك، ضاعوا وضلّوا الطريق، لأنهم لا يكادون يملكون من خرائطه شيئًا. بل إنك -حتى في مجال تخصصهم الدقيق هذا- إذا سحبت من بين أيديهم النصوص الحرفية المستمدة من المراجع والمصادر، والتي يتّكؤون عليها في إنجازهم بحوثَهم، فقدوا القدرة على كتابة سطرين.

كَسْر جدران الزنزانة، وتحرير المختصين من الاعتقال في سراديبها الضيقة، تلك هي -أغلب الظن- القيمة الأساسية لمبدأ التكامل المعرفي التي يدعو لها ويشتغل عليها "فتح الله كولن" في كل كتاباته.

ليس هذا فحسب، بل إن التكامل المعرفي يعدّ ضرورة من ضرورات التأصيل الإسلامي للمعرفة، أو أسلمتَها بعبارة أدقّ. إذ كيف تتم إعادة بناء المعرفة الإنسانية في

ضـوء تصورات وقيم ومبادئ المعرفة الإسـلامية، وكيف يتم تحريرهـا من هيمنـة المؤثـرات العلمانية -وأحيانًـا المادية- التـي انحرفـت بمعطياتهـا ونتائجهـا فيمـا يتعارض وأسـسَ التصوّر الإسـلامي للكون والعالم والحياة والإنسان والوجود والمصيـر، وكيـف يعود الالتحـام بين الحقائق والتأسيسـات المتشكلة بقوة "الوحي"، وبين كشوف العقل البشري وخبراته المتنامية في هذا الحقل أو ذاك؟

إن علمـي النفـس والاجتمـاع، وعلوم الإدارة والسياسـة والاقتصـاد، والتاريخ والحضـارة، والآداب والفنون، لَبِأمسّ الحاجة إلى التعامل معها -بدءًا وصيرورة ونتائج ومعطيات- وفق أسـس وضوابط المعرفة الإسـلامية التي لا تبخل بتقديم تأسيسـاتها وثوابتهـا ومعاييرهـا لأداء هـذه المهمـة من أجل الوصـول -وبالطرائـق العلميـة الصارمـة- إلـى نتائـج أكثـر دقـة وإحكامًـا. وهكذا يجـيء تزويد الطالـب بالمعرفتين معًا فـي ضـوء رؤيـة تكاملية، فرصـة ضرورية لتمكينـه من هضم وتمثـل مفاهيـم التأصيل الإسـلامي للمعرفـة، والإعانة على تحقيـق أهدافهـا، فيمـا ينقلنا إلى الخطـوة التاليـة وهي البدء بنسـج المشروع الحضاري الذي يسـتهدف انبعاث الحضارة الإسـلامية، ومشـاركتها الفاعلـة فـي إعـادة صياغـة المصير البشـري وفـق معادلتهـا المتميـزة التـي يلتقـي فيهـا الوحـي بالوجـود، والتعليم الديني بالكشـف العقلي، ويتحقق التوازن الضائـع في الحضارة الغربية الراهنة، فيما نبّه إليه وأكده كبار فلاسفة وعلماء ومؤرخي ومفكري الغرب أنفسهم.

وهكـذا، وحيثمـا تَلفَّتْنـا وجدنـا كيـف يصيـر "التكامـل المعرفـي" ضـرورة إسـلامية "حضارية" في الوقت نفسـه، لا تخص نتائجه عالم الإسلام وحده، بل يمضي لكي يسهم في إعادة بناء العالم الذي جنحت به رياح التشريق والتغريب.

ولطالما أكد "فتح الله كولن" في كتاباته على أنه في التصوّر الإسـلامي تحديـدًا، لا يكفـي أن يعمـل العقـل -والحـواس بطبيعـة الحـال- الجهـد للوصول إلى "الحقيقـة"؛ إذ لابد من إعانـة أو إضـاءة "فوقية" تأخـذ بيد العقل وتمكّنـه من تحقيق المطلـوب. وهكذا يصبح "الوحي" ضرورة ملازمة للعقل إذا أريد اكتناه أسـرار الوجود، وإعادة صياغته بما ينسجم ومهمةَ الإنسـان الاسـتخلافية والعمرانية في هذا العالم. وهذا يقودنا بالضـرورة إلى التحقق بمفاهيم التأصيل الإسـلامي للمعرفة، بمعنـى اعتمـاد ثوابـت العلم الديني المتشـكل بقـوة الوحي، معيارًا لبناء ما يتمخض عن الكشف العقلي الذي طالما انتهى -إذا عمـل بمعـزل عـن ضوابط الوحـي- إلى الوصـول إلى نتائـج احتماليـة ظنية بعيـدة -بدرجة أو أخـرى- عن حافات اليقيـن، بشـهادة كبار فلاسـفة العلم وعلماء النفـس والفيزياء والكوزمولوجـي، وبمتابعة شـواهد أخرى من كشـوف العقل النسـبية والقلقة في علمي النفس والاجتماع وفلسفة التاريخ. وهكذا فإن التأكيد على عمق الظاهرة الغيبية في البنية الكونية والإنسـانية، وتغطيتها المساحات الأوسع بالمقارنة مع عالم الشـهود، والاهتمـام البالـغ الـذي أولاه التصوّر الإسـلامي للغيب، يجيء مطابقًا لاسـتنتاجات العديد من فلاسـفة العلم وعلماء الفيزياء والكوزمولوجي والنفس.

إن هـذه الحقيقـة تقودنا بالضـرورة إلى التحقـق بمفاهيم التكامـل المعرفي، ليس فقط لخدمـة وتأكيد المطالب الدينية والإيمانيـة عمومًـا، وإنمـا وبموازاتهـا تمامًا إعانـة المطالب العلميـة علـى الوصـول إلـى أهدافهـا بأكبـر قـدر ممكن من الانضباط المنهجي إذا صح التعبير.

إن الأسـتاذ "فتح الله كولن" ينطلق من هذه الرؤية الصائبة فـي التعامـل المعرفي مـع الكون والحياة والإنسـان والوجود والمصير... ومن ورائه تلامذته الذين تشـرّبوا فكره الشمولي هـذا، أولئـك التلامذة الذين قـدّر لهم -بقوة هـذا الفكر- أن ينتشـروا فـي الأرض، وأن يملأوا السـهل والجبـل، ويقيموا الملتقيـات والندوات والمؤتمرات... وينشـطوا في المدارس والجامعـات، ضاربيـن فـي أرض الله الواسـعة... إنهـم "فتية إيمـان... إشـعاعات هـدى... علـى كواهلهـم أثقـال رسـالة أشـفقت عن حملها جبال الأرض وأطباق السماء... وحملها هؤلاء الفتية أعجوبة الزمان وأبطال الأنام إلى أقاصي الأرض وأدانيها... يمشـون... والأرض يخرقون... ووراءهم يمشـي التاريـخ ويتابـع خطاهـم ويكتـب آثارهـم ويترصـد جلائل أعمالهـم... بواطنهم موّارة بآلام أمـة، وأحزان قرون، ودموع أجيـال، ومآسـي أزمـان... لكنهم غيـر مثبَّطيـن ولا مُحبَطين ولا يائسـين... الآمال من وجوههم طافحة، والبُشـريات على ألسنتهم منهالة... يعملون... يجِدّون.

عرقًـا يتصببـون، لكنهـم لا يشـتكون... بالغربة يأنسـون، وبكلمـة الله التـي يحملـون، قلوبًـا يفتحـون، وأعلامًا للهدى يركـزون، وراية محمد عليه الصلاة السـلام علـى قمم العالم يقيمون... لا ينكصون وعن غاياتهم لا يرجعون".

هـذا مـا يريـد أن يقوله واحد مـن أشـد المخلصين لفكر "كولـن"، المتشـربين مفرداتـه ومقاصـده، العامليـن بالجـدّ المطلـوب علـى التماهي مـع فكره ونشـره في الأرض... في كتـاب يحمـل عنـوان "الضاربون فـي الأرض" بكل مـا يعنيه مـن دلالـة، محاولاً فيه أن يلقي نظرة مترعة بالشـفافية، قديرة علـى تحقيـق المقاربة مـع فكر هذا الرجـل الكبير ذي العطاء الخصب الذي تشهد به مؤلفاته المتلاحقة تترى على الناس.

ومَـن أقـدرُ من الأخ الأسـتاذ "أديب الدبـاغ" على تحقيق هذا، بلغته الشـفافة وقدرته على اسـتنطاق ما وراء الملموس والمنظور، وبإيغاله في عالم الإنسان الذي أراد له الله سبحانه أن يُعمل عقله وروحه وحسّه ووجدانه في الظواهر والأشياء؟

إنـه يمسـك في كتابه هـذا بالعديد من نقـاط الارتكاز في فكـر "كولـن" عبر جملـة مـن مؤلفاته القيّمـة، مسـلطًا عليها الضـوء الكاشـف الذي يعرف كيـف ينفذ إلى عمـق الظاهرة فيضـع يده على نبضهـا الأصيل... عن التاريـخ والحضارة، عـن العقل والتغيير المنتظر، عن الكلمة والفكر، عن التجديد الدعـوي، عن أدبيـات الشـيخ "كولن"... عن معـارج القلب الإنسـاني والفاعليـة الحركيـة في الفكر والحيـاة... عن روح الجهـاد... عـن كيف نبنـي حضارتنـا ونقيم صـرح الروح... عـن الخلـق ونظرية التطـور... عن القرآن والسـيرة النبوية... عـن القيادة، عن الثقافة... عن مـدارس النور وبناء العقول... وعـن الرؤيـة الكونية لمناهج التعليم... وعشـرات غيرها من المفـردات الأساسـية فـي فكـر الرجـل، يضعنـا الأخ "أديب الدبـاغ" قبالتهـا تمامًـا، مشـغّلاً أسـلوبه المتميز في الكشـف والإضـاءة والتحليـل... فمـا يزيدنـا إلا إعجابًا بفكر الشـيخ ورغبـة في مواصلة قراءته، والتزامًا بدعوته الصادقة المخلصة التي قَدرت على أن تجذب هذه الحشـود الكبيرة من الشباب العامليـن، الذين يتمنى أحدهم أن يفني عمره في الدعوة لهذا الدين العظيم، ولمشروعه الحضاري الذي يبشّر به.

ويبقى أن فكر الأسـتاذ "فتـح الله كولن" هو امتداد طبيعي لفكـر أسـتاذه بديـع الزمان سـعيد النورسـي، ومحاولة جادة للمضـي بـه قدمًا صـوب الأمـام، بمـوازاة وفـي مجابهة كل صنـوف المتغيّـرات والتحديـات التـي تفجّـرت فـي العصر الحديـث، من أجـل تقديم الاسـتجابات الناجعة لهـا، والتي قدّمت الكثير وهي فوق ما قدّمته تعد بالكثير. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

حلِّقْ واجْتَزْ

من التأمل لا تُكْثر،
وبالإحباط لا تفكّر..!
افْرشْ جناحيك وحَلِّقْ،
فهُما على العواصف عَصيَّان،
وعلى اجتياز المسافات قادران...
وفيهما مِن رَوْحِ الله رُوح،
ومن القدرة الإلَهية قدرةٌ...
فامْضِ لطيّتك راشدًا،
بلا خوفٍ ولا وَجَل،
ولا هَمٍّ ولا نَصَب..!

* * *

أديب إبراهيم الدباغ*

ما لم يأخذ الإنسانُ من الصبر عدّته، فلن يبرح مكانه، ولن يتقدم إلى الأمام قيد أنملة..
فبالصبر تتوالى الخطوات وتتحقق الأهداف.

* * *

(الموازين)

تأملات في النبي والنبوات

من خلال التأمل الاستقرائي العميق لتاريخ النبوات على سطح هذه الأرض، يمكن أن نخلص إلى نتيجة في تعريف "النبوة" مفادها أنّ "النبوة" بمعناها الشامل المحيط، إنما هي عملية استنهاض إلهي للقوى الإدراكية والروحية الكامنة في "الجوهر الإنساني" لدى "النبي"، ومن ثم فهي عملية توسيع زاوية النظر عند "النبي" في اعتماد الشمولية الجامعة بين الإنسان من جهة، والعالمين المرئي وغير المرئي من جهة أخرى. و"النبي" وإن كان مبعوثًا لزمان ومكان معيّنين، غير أنه ينظر إلى "الزمان" من فوق الزمان ومن خارجه، وينظر إلى "المكان" من فوق المكان ومن خارجه كذلك، فيأتي نظره أنفذ وأصدق وأبعد وأشمل. وعندما يبلغ "النبي" هذه الرؤية الشمولية، فإن الزمن سيتوقف عنده، وينشأ زمن جديد يشرع بالتشكل من تعاليمه ومسيرته ومن التوجهات الإلهية الموحَى بها إليه.

النبي

و"النبي" لا يتوقف عند درجة واحدة من سلّم المعرفة، بل هو في ترقٍّ دائم مع كل نفَس من أنفاسه، حتى يرى العالم في أوج توهجه الجمالي، وإعجازية انتظامه ودقة صنعه، كما أنه يرى الإنسان هو المكان الأرفع الذي يحرص على جعله مرآةً عاكسة تعكس عالمه الداخلي والخارجي على حدٍّ سواء.

إن "النبي" يثير في قومه من الانفعالات ما يحفز الجموع لتخطي الركود العقلي والروحي اللذين اعتاد الإنسان العادي

أن يعيش في دائرتهما، فتجعله أكثر جرأةً على كسر قيود نفسه والتخلّص من أغلال عقله وروحه. فهو بمثابة الحجر الكبير -ولا مناقشة في المثال- الذي يحرك أمواج المياه الراكدة في بحيرة الزمن الساكن... فالانفعال القوي، والتوتر الشديد، والقلق العميق الذي يحدثه "النبي" في الإنسان، كل هذه تعمل مجتمعة على إزاحة الأستار عن الجانب الروحي العميق في الكيان البشري لم يكن معروفًا لديه من قبل. وهو في كل الأحوال، سيلمس في داخله قوة عاملة تدفع به نحو هدفية، إنْ كانت مجهولة اليوم لديه، إلا أن "النبي" سيعينه على فهمها وإدراكها، ويرسم له طريق الوصول إليها. لذلك صار من أعظم مهام "النبي"، هو تدارك أولئك اليائسين الذين قد بلغ بهم اليأس إلى حدّ اعتقادهم أن وجودهم نفسه على سطح هذه الأرض، إنما هو خطأ كوني ما كان للكون أن يخطئ فيهم هذا الخطأ الشنيع؛ حيث ألقى بهم بدون مبالاة على قارعة هذه الأرض، ليعانوا فيها الغربة والحرمان ومختلف صنوف العذاب والإحباط. وذلك لكونهم يتعاملون مع حقائق الوجود كمجرد ظواهر أو أرقام أو حسابات، بينما هذه الحقائق لها ارتباط وثيق بالأنفس والأرواح وحتى السلوكيات.

محك الإيمان

وإن مُوصِل الإنسان إلى فهم الوجود ضمن هذه المعطيات النفسية والروحية، هو محك الإيمان الذي يسعى "النبي" إلى إرساء قواعده في النفوس البشرية التي يتعامل معها. إنه -أي النبي- يحمل على كاهله من الأعباء والإشكالات التي تنتظر الحلول، ما لم تستطع قوة أجيال كاملة أن تحملها وتجد الحلول اللازمة لها. فلا عجب إذن -والأمر كذلك- إذا رأينا "النبي" وهو يغير مجرى الزمن ويفتح تاريخًا جديدًا لأعماله المجيدة في الأقوام والشعوب والأمم.

نبوة محمد ﷺ

فتتابُع "النبوات" عبر الأزمنة، قد توقَّفَ -وإلى الأبد- عند "نبوة" محمد الكبرى، جامعةِ النبوات، والمحتوية على خلاصاتها. فليس من نبوة ولا نبي بعده، فهو عليه الصلاة والسلام اللبنة القمّة التي تُرِك محلّها فارغًا في صرح "النبوات"، ليكون هو تلك اللبنة التمام كما أخبر عليه الصلاة والسلام.

ولكونه الجامع الأعظم والمحتوى الأوسع لكل تجارب الأنبياء السابقين، فإن نبوته اكتسبت بهذه الجامعية صفة الخلود والسرمدية والامتداد عبرَ الزمن حتى نهاياته. فهو عليه الصلاة والسلام نبي هذا العصر ونبي كل عصر آتٍ إلى قيام الساعة. فلا جرم أن نرى تعاليمه والقرآن الموحى به إليه، قادرَين على إنشاء رجال أنبياء ولكن من غير وحي، ورسل ولكن من غير رسالات منزلات عليهم، وهذه إحدى خواص هذه الأمة التي تميزت بها عن غيرها من الأمم؛ فكان بعض رجالاتها من العلماء كأنبياء بني إسرائيل كما قال عليه الصلاة والسلام في الإشارة إلى ذلك: "علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل". فمحمد ﷺ ظاهر واضح الظهور، يتراءى للناس من خلال هؤلاء العلماء المتتلمذين على كتابه وعلى سُنّته. فهو يعيش ويحيا في أفكارهم وفي أعمالهم، يدور مع الزمن حيث دار، ويتخلل في علماء أمته جيلاً بعد جيل إلى نهاية العالم.

"النورسي"

و"النورسي" رحمه الله، من علماء هذه الأمة الأفذاذ، فقد خالط الوحيان -القرآن والسنة- سمعَه وبصره ومخّه وعظمه وعصبه ولحمه ودمه، فتنفس أنفاسهما، وتشرب رحيقهما، بهما عاش، ولهما كرَّس وجوده وحياته وقلمه ورسائله "رسائل النور". إنه يرتقي قمة هذا العصر حاملاً بيديه الوحيين العظيمين، ويقف على هذه القمة مناديًا إنسان اليوم، ليعود إلى كنف النبوات من جديد بعد ما عاناه من جفافات روحية وتصحرات وجدانية كادت تأتي على البقية الباقية من خضرة الإيمان في قلبه.

فـ"النورسي" بشهادة الذين قرأوا له -وهم كثيرون- من أعمق وأوسع الذهنيات الإيمانية في هذا العصر، وكثيرًا ما يَستعصي على الفهم إلا إذا فُهِم على أنه مرآة عظيمة وصقيلة مهمّتها الأساس أنْ تعكس روح النبي الخاتم وروح قرآنه الموحى به إليه، فمسألة العودة إلى الدين وإنْ كانت مسألة مرتبطة بضمير الفرد، غير أنها -إلى جانب ذلك- قضية في غاية الأهمّية للحضارة القائمة. فما لم تعد هذه الحضارة إلى الدين وتجعله واحدًا من أعمدة ركائزها، فإنها مهددة بالانهيار والسقوط كما يتنبّأ بذلك جَمٌّ غفير من أساطين هذه الحضارة ومفكّريها. فالمسألة برمّتها تكمن في ابتكار مفاهيم جديدة غير تلقيدية ولا نمطية حول علاقة الإنسان بالحياة

وبالموت، وعلاقة الحضارة كذلك بالحياة وبالموت.

الحياة والموت

وقد اكتشف "النورسي" هذا المفهوم من خلال تأمله الطويل والعميق في الحياة والموت. فالحياة عنده هي عملية انطلاق من قيود العدميات والنسبيات التي هي أساس كل الشرور التي يطفح بها العالم، وهي -أي الحياة- بعد ذلك وقبل ذلك، قدحة من قدحات المطلق الإلهي وتجلٍّ من تجليات اسمه تعالى "الحي" في الإنسان والكون والكائنات. هكذا يفهم "النورسي" المعنى العميق للحياة والمعنى العميق للموت، حيث يرى فيه وجهًا آخر من وجهي الحياة، لأن "الموت" مخلوق؛ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.. أجل، مخلوق كالحياة. فالموت إذن ليس عدمًا، وحتى العدم نفسه فهو بَيْدرُ الموجودات؛ لأن الموجودات يتوالى مجيؤها منه بعد عملية الخلق والإيجاد كما يقول مولانا جلال الدين الرومي.

عالم الحداثة وما بعد الحداثة

والسؤال المتربّص بنا في هذا المقام وينتظر الإجابة عليه هو: هل العالم اليوم؛ عالم الحداثة -كما يسمّونه- وعالم ما بعد الحداثة -كما يقولون- الغائص في هذه المادية الغليظة والمرعبة، قادر على فهم "النبوات"، وقادر على استيعاب غيبياتها والإيمان بما ورائياتها؟ فعقل العالم اليوم مصاب بكلال ذهني وقصور إدراكي، وفقدان لذكائه الفطري المطمور تحت ركام من مغالطات المنطق، وسفسطات الفلسفة، وتنوع الثقافات، وفوضى الأفكار والأيدلوجيات، وغياب الهدفية والمآل والمصير عن اهتمامات الإنسان... كل هذا صحيح. وهذا الصحيح المظلم القاتم الظلام، في أشد حاجاته اليوم إلى "النبي" و"النبوات"؛ لأنه لا شيء يمكّنه أن يمنح الإنسان المعنى والمغزى لحياته، ويعرّفه بهدفية الحياة التي يحياها، ويفتح منافذ روحه وعقله على المآل والمصير وعلى الموت وما بعد الموت، غير "النبي" وغير "النبوات". فالموت والحياة يبقيان لغْزين من ألغاز هذا الوجود اللذين يتحدّيان عقل الإنسان، وهما الحقيقتان الوجوديتان اللتان نشهد تكرارهما أمام أعيننا كل يوم، الأمر الذي جعل "النورسي" يقول: "إذا لم نكن قادرين على إيقاف قوافل الموتى التي تزور المقابر وتدخل القبور كل يوم، وإذا لم يستطع أحد إلغاء الموت من فوق هذه الأرض، فإن ذلك يستدعي التفكير الجدّي في معنى "الموت والحياة"، والتفكير الجدّي كذلك في مآل الإنسان ومصيره".

المآل والمصير

والتفكير في "المآل والمصير" هو ما أكّدت عليه "النبوات" جميعًا، وحثَّتْ عليه الإنسانَ وطلبت منه أن يكون من أعظم اهتماماته وأكبرها... ولكن غالبية البشر -لقصر نظرهم- يقعون في مشاغل الحياة الدنيوية وتفاهاتها وحماقاتها، ولا يرغبون في تحمل مسؤولية هذا التفكير وما يترتّب عليه من التزامات، ولا يريدون أن يدفعوا ثمن ما يتطلبه سُموُّ هذا التفكير من جهد ذهني وجسدي وسلوكي، واستنهاض للقوى الروحية النائمة في أعماقهم وما يستدعيه ذلك من قوة إرادة وقوة عزيمة، وإصرار على المضي في هذه الطريق إلى نهاية الشوط.

الإيمان بالنبوة

فالمؤمن بالنبوة يشق طريقه وسط عصر الشك هذا، ووسط شك كل العصور، دون أن يتزعزع إيمانه للحظة واحدة مهما يُثارُ من حوله من شكوكيّات يُراد له أن ينزلق نحوها.

والمؤمن بـ"النبي" و"النبوة" يصبح من القوة والاقتدار بحيث يستطيع أن يشكل منعطفًا جديدًا في أساليب التفكير السائدة في عصره، وقد يستطيع أن يلفت انتباه حضارة بأسرها ويثير اهتمامها لتتبنّى أسلوب تفكيره الإيماني. فالنبويُّ التفكيرِ، يمثل بحد ذاته استدراكًا وتصحيحًا للمعطيات الفكرية للحضارة القائمة أو الحضارات اللاحقة.

وهذه الانعطافات في مسيرة الزمن ومسيرة الحضارات، هي ما حققه الأنبياء العظام من أصحاب الرسالات الكبرى، وحققه خاتمهم محمد ﷺ، فإن أربعة عشر قرنًا عاشت في ظلّ نبوته الخاتمة، وإنْ كان هذا الظل قد ينحسر بعضَ الشيء عن بعض القرون وقد يمتد ويكثف على بعض القرون الأخرى، إلا أنه يبقى موجودًا ومعروفًا ومُسْعى إليه في حالي انحساره ومَدّه.

والأستاذ "النورسي" يدرك أن العصر الذي كُتب له أن يعيش فيه، هو عصر الانحسارات الروحية في العالم كله، ولا سيما انحسار الظل المحمّدي عن الأمة المحمدية. لذلك فقد رأى أن واجبه الديني والأخلاقي والإنساني، يحتم عليه أن يسعى بكل ما يمتلك من قوى روحية وعقلية إلى أنْ يعيد

لهذا الروح المحمدي هيمنته على هذه الأمة وتألّقه في سماء حياتها. ففي صوت "النورسي" وفي قلمه، شيء من الربانية وشيء أقرب إلى النفحات العلوية، لذا فهو مدفوع بكل خصبه الذهني والروحي إلى تكريس وجوده الأفضل لهذه المهمة المقدّسة، فيقول وهو في غمار هذا العمل المجيد: "لقد ضحّيتُ حتى بآخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع... فليس في قلبي رَغَبٌ في الجنّة، ولا رهَبٌ من جهنّم، فليكن سعيد (يعني نفسه) بل ألف سعيد قربانًا في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ مئات الملايين... ولئن ظلَّ قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حتّى في الجنة، إذْ ستكون هي أيضًا سجنًا لي... وإنْ رأيتُ إيمان أمّتنا في خير وسلام فإنّني أرضى أنْ أُحرَق في لهيب جهنّم، إذْ بينما يُحرَقُ جسدي يرفل قلبي في سعادة وسرور"[1].

ولكي نكون أكثر قربًا وفهمًا لهذه الشخصية العظيمة الممتلئة بالشجاعة والصلابة وقوة الشكيمة، لنقرأ معًا ما يقوله عن نفسه التي قاربت أن تكون خارقة من خوارق العادات، فيقول: "لم أذُقْ طوال عمري البالغ نيفًا وثمانين سنة شيئًا من لذائذ الحياة... لقد قضيتُ حياتي في ميادين الحرب، وزنزانات الأسر، أو سجون الوطن، ومحاكم البلاد؛ لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرَّعه... عوملتُ معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، وغُرِّبْتُ في أرجاء البلاد كالمشرَّدين، وحُرِمْتُ من مخالطة الناس شهورًا في زنزانات البلاد، ودُسَّ لي السُّمُّ مرارًا، وتعرضتُ لإهانات متنوّعة، ومَرَّت عليّ أوقات رجَّحتُ فيها الموتَ على الحياة ألف ضعف، ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي فربّما كان سعيد اليوم ترابًا تحت التراب"[2].

ثورة عقلية وروحية

لا يشك أحد في أن البشرية اليوم، أعلى إدراكًا وأعظم علمًا وأقوى تفهمًا مما كانت عليه فيما مضى من القرون، ولكن قوة الفهم عندها، في أمسّ الحاجة إلى نوع من التطهير والتعديل والتقويم -ولا سيما تلك المنطقة المعتمة من عقلها فيما يخص حقائق النبوات والدين- ولكي تحمل نفسها على فهم هذا الجانب المعتم من عقلها، في حاجة إلى شجاعة نفسية وعقلية تبلغ حَدَّ البطولة، لتأخذ بيدها وتجعلها تجتاز التخلف عن قِمَمِ الفهم والعلم الحقيقين اللذين لا زالت تقصر عن فهمها بالشكل المطلوب، وهذا هو ما يمكن أن تقوم به للبشرية النبوات العظيمةُ وبالأخص الخاتمة منها. فنبوة محمد ﷺ جاوزت النبوات السابقة بكفاحها البطولي المستمر، وبقدرتها الفائقة على استيعاب المدركات المتجددة للعقل الإنساني مع الزمن. فنبوة محمد ﷺ والقرآن الموحى به إليه، إنما هو ثورة عقلية وروحية تستوعب كُلَّ نتاجات العقل الإنساني، وقد تسبقها أحيانًا وتمهد لها أحيانًا أخرى كما يشير إلى ذلك "النورسي" في مبحثه الإبداعي عن معجزات الأنبياء ﷺ. وهذا هو سِرُّ خلودها وسرمديتها، لأن الوحي نفسه يخاطب رسوله ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه:١١٤).

فلم يسجل تاريخ العلم خلال أربعة عشر قرنًا أيّ تعارض بين حقيقة علمية ثابتة مع أي حقيقة دينية ثابتة في الكتاب والسنة، وأكثر من ذلك يقول "النورسي": "إذا تعارض العقل مع النقل، يُؤوّل النقل ليوافق العقل"، وهذه قاعدة أصولية معتمدة من رجال العلم والفقه في كل زمان ومكان. وتوكيدًا لرأيه السابق، نورد هنا نصًّا ورد في المقدمة الأولى من كتابه "صيقل الإسلام" حيث يقول: "من الأصول المقرّرة أنه إذا تعارض العقل والنقل، يُعَدُّ العقل أصلاً ويؤوّل النقل، ولكن ينبغي لذلك العقل أن يكون عقلاً حقًّا"[3].

السعة والعمق لدى "النورسي"

إننا قد نركض وراء "النورسي" لنلحق به، ونتعب من هذا الركض إلى حد اللهاث، ثم نرى في آخر الشوط أن أفكاره أعمق من أن نطالها أو ندركها. وهذا الأمر هو الذي يدفعني إلى القول بأن الأعمال الفكرية الفخمة والعظيمة من مثل "رسائل النور"، نادرًا ما تُسلِس قيادَها لمن يريد قياسها بالشبر والمسطر كما اعتاد الأكاديميون أنْ يفعلوا، فمثل هذه الأعمال لا يُستطاع ضبطها ولا حصرها، لأنها تتفلَّتْ من كل ضبط أو حصر، ولكنها تبقى مع ذلك المُلهِمَ الأعظم لجيَشان أفكارنا وتغذية وجداننا. فأفكار الرجل -أعني النورسي- كشعاعات الطاقة الضوئية المتجددة تشع في الأذهان والقلوب والأرواح، ثم تثوي هناك وتغيب فيها فلا يُستطاع الإمساك بها كما لا يستطاع الإمساك بشعاع الضوء أو النور. ولكنها تُحدث في دواخلنا شيئًا لا ندري ما هو، ينقلنا من الحالة الذهنية العادية إلى حالة ذهنية غير قابلة للتفسير، لأنه أكثر رجال الإيمان درايةً بخصائص الروح وسرائر الضمير.

العقل الكبير والنبوة

فموضوع "النبي" و"النبوة"، موضوع كبير يحتاج لمعالجته إلى عقل كبير، وأن يكون هذا العقل محتفظًا على مَرِّ السنين بجدّته وحرارته. والنورسي ما كتب ما كتب بأقلام القصب، بل بأقلام مدادها نزيف الروح ودماء القلب، وأحسب أنه حين كان يكتب -ولا أزكّيه على الله بل تعالى هو المزكي- يغيب كل شيء من أمام بصره وبصيرته إلا الجلال الإلهي والجمال الأبدي. إنه من الله تعالى ومن قرآنه يأخذ ليكتب للهِ ولخلق الله... فالشوق إلى الحقيقة -عندما يكتب- هو الباعث الأعظم لحرارة الحياة في كتاباته... فهو لا يبحث "في الحياة" أو "عن الحياة"، بل يبحث عن لُبِّ الحياة، وعن سِرِّها، وعن قوامها، وعن محركاتها، وعن إدراك مراميها، وعن التعرُّف على توجهاتها، ونتائجها، وخلاصاتها، وبداياتها ونهاياتها... وعن حقيقة الإنسان، وعن قدراته وطاقاته، ولانهاياته، وتشبثه بالخلود، وعشقه للأبد، والنبوة وضرورتها لبني الإنسان، ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وعظمة هذه النبوة، وكونها الخاتمة، ودواعي خلودها وبقائها، وحاجة البشرية إليها، وصلاحها لمعالجة أخطاء كل الأزمنة والأمكنة.

الحقيقة الدينية

فالحقيقة الدينية، هي ما ينشده هذا المفكر العظيم من خلال بحوثه في النبوات عمومًا وفي نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بالأخص. وهذه الحقيقة عادت على لسانه أنشودة جمالية وجلالية، ظلّ ينشدها لنفسه وينشدها للآخرين من خلق الله بشفافية عجيبة وبصوت حزين، كي لا تثقل على الأذهان أو تؤود الوجدان، فبقدر ما كان مهيبًا كان حزينًا، وبقدر ذلك كان مقبولاً من لدن طلابه ولدن كل مَنْ حظي برؤيته أو مجالسته. فقلبه الواسع الكبير، ظلَّ في حياته كلها معدن إشفاق وينبوع رحمة حتى لأعدائه الذين جرّعوه شتّى صنوف العذاب... فالبساطة مع التناسق، والتماثل مع التناسب والتألق مع الوضوح من مقومات فكره، ومن ميزات كتاباته... وللتدليل على ذلك، نورد بعض أفكاره في النبوة حيث يقول: "إن القدرة الإلهية التي لا تترك النمل من دون أمير والنحل من دون يعسوب، لا تترك حتمًا البشر من دون نبي ومن دون شريعة... نعم هكذا يقتضي سرُّ نظام العالم"[٤].

أما كلامه في "المعراج"، فإنه ينمُّ عن عبقرية ذهنية استشرافية غير مسبوقة، وفهمٍ جديد إبداعي النظر حيث يقول: "كل سماءٍ مدارٌ عظيم لعرش الربوبية، ومركز جليل لتصرف الألوهية"، ثم يمضي فيقول: "حتى عرج به إلى مقام "قاب قوسين"، فشرّف بالأحدية بكلامه وبرؤيته، ليجعل ذلك العبد جامعًا لجميع الكمالات الإنسانية، نائلاً جميع التجليات الإلهية، شاهدًا على جميع طبقات الكائنات، داعيًا إلى سلطان الربوبية، مبلغًا للمرضيات الإلهية، كشَّافًا لطلسم الكائنات"[٥]. ويقول: "فمثلاً في أيّ سماء قابلَ سيدنا عيسى عليه السلام المتشرّف باسم "القدير"، سيدنا الرسول ﷺ؟ فالله سبحانه وتعالى متجل في دائرة تلك السماء بالذات بعنوان "القدير، ومثلاً إن عنوان "المتكلم" الذي تشرّف به سيدنا موسى عليه السلام، هو المهيمن على دائرة السماء التي هي مقام سيدنا موسى عليه السلام.

وهكذا فالرسول الأعظم ﷺ، لأنه قد حظي بالاسم الأعظم ولأنّ نبوته عامةٌ وشاملة وقد نال جميعَ تجليات الأسماء الحسنى، فإن له علاقة إذنْ مع جميع دوائر الربوبية... فلابد أنّ حقيقة معراجه تقتضي مقابلته الأنبياءَ وهم ذوو مقام في تلك الدوائر، ومرورَه من جميع الطبقات"[٦].

المعرفية الإيمانية

فكم سيكون الأمر عظيمًا إذا استطاع عالمنا الإسلامي أن يُنجب اليوم رجالاً ذوي ذهنيات عظيمة وخصبة كما عند "النورسي". فإني أحسب أن "المعرفة الإيمانية" لهذه الأمة، ستزداد وتتسع وتمتد حتى يصبح بمقدورها أن تستوعب معارف العصر من دون شعور بالقصور أو الدونية. فإننا نحن البشر، لا يبهرنا شيء كما يبهرنا ما تعانيه العقول الكبيرة من حنين إلى المعرفة، ومن رغبة في أنْ نرى الإرادات الجبَّارة لعظام المفكرين وهي تناضل من أجل إدراكات أكثر عمقًا، وأعظم اتّساعًا، وأقدر على التغيير والتجديد، وهذا هو ما تحتاجه الأمة في الوقت الحاضر. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

الهوامش

(١) سيرة ذاتية، سعيد النورسي، ص:٤٥٧.
(٢) سيرة ذاتية، سعيد النورسي، ص:٤٥٧.
(٣) صيقل الإسلام، سعيد النورسي، ص:٢٩.
(٤) اللوامع، سعيد النورسي، ص:٨٤٣.
(٥) اللوامع، سعيد النورسي، ص:٨٥٢.
(٦) اللوامع، سعيد النورسي، ص:٦٧٤.

د. خالد عمارة*

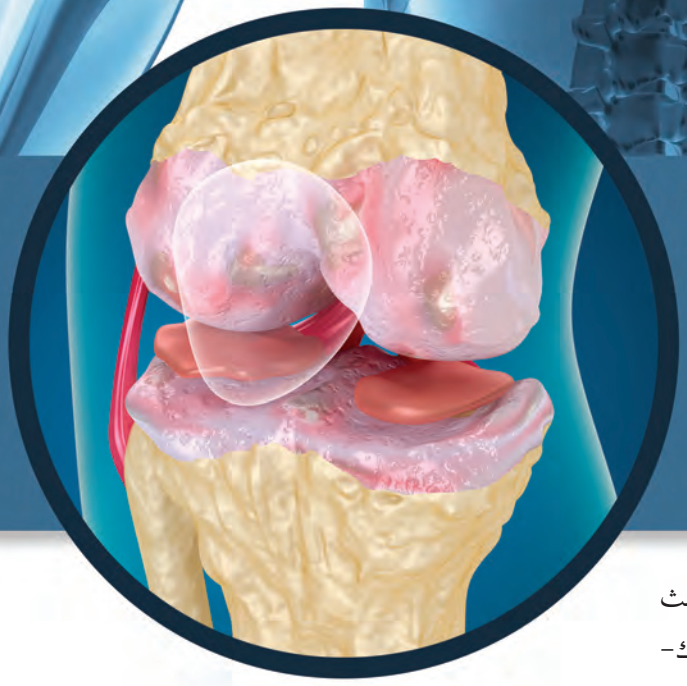

خشونة المفاصل
الأسباب والعلاج

لقد خلق الله ﷻ مفاصل الإنسان، بحيث تجمع بين سطح ناعم -قليل الاحتكاك- يُغطي سطح العظام، وفي نفس الوقت علاقة مستقرة بين العظام. ويتكون المفصل من علاقة بين عظمتين من عظام جسم الإنسان، فمثلاً مفصل الركبة، يتكون من علاقة بين عظمتي الفخذ والقصبة. وسطح العظام عند منطقة المفصل، يكون مغطّى بغضاريف شديدة النعومة. وهناك نوعان من الغضاريف تغطي سطح المفصل: الأول غضاريف لامعة شديدة النعومة، وتكون وظيفتها التحرّك بأقل نسبة احتكاك بين العظام. والثاني غضاريف من نوع آخر يجمع بين الخلايا الغضروفية والألياف، وهذا النوع الآخر من الغضاريف، يكون مسؤولاً عن زيادة استقرار المفصل أثناء الحركة. ولكي يكون المفصل أكثر استقرارًا أثناء الحركة، تعمل الأربطة والعضلات على أن تكوّن روابط قوية تحافظ على ميكانيكية الحركة للمفصل والعلاقة الثابتة بين العظام أثناء الحركة، وتسمح بالحركة حول محور مستقر مما يمنع الاحتكاك غير الطبيعي.

وتعمل العضلات على تحريك المفصل بعد تلقّي الأوامر من المراكز الحركية بالدماغ، وتصل هذه الأوامر إلى العضلات عن طريق الأعصاب. وبالتالي لكي يتحرك الإنسان بصورة طبيعية، فهو يحتاج إلى مراكز حركةٍ بالدماغ طبيعية، وأعصابٍ تنقل الإشارات الصحيحة إلى العضلات الصحيحة، وعضلاتٍ بحالة جيدة، ومفاصل وعظامٍ سليمة، وإلى علاقةٍ

متوازنة بين العظام وبعضها من خلال استقرار المفاصل.

وعلى المستوى الميكروسكوبي، تتكون الغضاريف الناعمة المبطِّنة لسطح أيّ مفصل، من خلايا غضروفية يحيط بها من كل جانب الموادُ الأساسية المكوّنة للغضاريف، مثل الكوندريوتين سلفات، والماء، والألياف البروتينية من نوع كولاجين٢ من المواد، وتكون وظيفة الخلايا الغضروفية، هي تكوين واستبدال المفقود من هذه المواد الناعمة. ومن الهام جدًّا أن يكون هناك اتزان بين تركيز هذه المواد ببعضها، وأيضًا اتزان في كمية الماء الموجودة داخل الغضاريف. وبالتالي فإذا قلَّ الماء عن حد معيّن أو زاد عن حد معيّن، يؤدي هذا إلى تآكل الغضاريف والخشونة لهذا السطح الناعم.

وللحفاظ على نعومة الحركة داخل المفصل وتقليل الاحتكاك، فهناك غشاء آخر يُبطِّن المفصل اسمه "الغشاء السينوفي"، وهو مسؤول عن إفراز ما يسمى بـ"السائل الزلالي" وهو سائل لزج شفاف يشبه الزيت، وهذا السائل يكون داخل المفصل بكمية محددة بسيطة تعمل على منع الاحتكاك بين الغضاريف.

ويتم توزيع الأوزان والأحمال داخل مفصل الإنسان بصورة متساوية، حيث إن التكوين الذي خلقه الله للعظام ولوزن الإنسان، تم بحيث يكون هناك اتزان في هذا التوزيع، فلا يكون هناك حمل مركَّز على منطقة في المفصل بدرجة تفوق تحمُّلها.

كما رأينا، فقد خلق الله ﷻ الكثير من العوامل والأدوات التي تحافظ على نعومة المفاصل واستقرارها أثناء الحركة.

أسباب الخشونة

هناك أنواع من الخشونة تكون بسبب تشوه بالعظام أو اعوجاج نتيجة عيب خَلقي أو وراثي أو نتيجة إصابة قديمة أو كسر... وهذه التشوّهات تتسبب في عدم توزيع الأحمال داخل المفصل بصورة متساوية على كل الأجزاء والخلايا، وبالتالي يصبح الحمل أعلى ومُتركّز في منطقة صغيرة بالمفصل، مما يؤدي إلى تآكل الغضاريف بهذه المنطقة. وبالطبع لمنع حدوث هذا، يجب علاج أي تشوهات بالعظام أو اعوجاج، سواء كان بسبب وراثي أو عيب خَلقي، أو نتيجة إصابة أو مرض.

من ناحية أخرى، هناك أمراض تصيب الغشاء السينوفي والغضاريف وتعمل على تآكلها.. وتكون هذه الأمراض بسبب عيوب في جهاز المناعة بجسم الإنسان، مما يتسبب في التهاب مزمن بالمفاصل نتيجة مهاجمة بعض البروتينات في الدم لبعض الخلايا في جسم الإنسان بما فيها المفاصل. وهذا الالتهاب المزمن، مع مرور الوقت يؤدي إلى تآكل بالغضاريف والعظام. وأشهر أمثلة على هذه الأمراض، الروماتويد، وشبيهات الروماتويد، والذئبة الحمراء... إلخ.

وهناك خشونة ناتجة عن إصابات الغضاريف أو الأربطة إما نتيجة إصابات الملاعب أو حوادث السير... وينتج عن هذه الإصابات أن يتحول سطح الغضروف الناعم إلى سطح خشن نتيجة كسر أو إصابة مباشرة. وفي هذه الحالة يجب التدخل جراحيًّا لإعادة الجزء المنقول من السطح الناعم إلى مكانه، كي نحافظ على نعومة المفصل. ومن ناحية أخرى، إذا كان هناك قطع بأحد الأربطة بالمفصل، والتي كما عرفنا تكون مسؤولة عن استقرار المفصل أثناء الحركة وتعمل كمحور للحركة، هذه الأربطة في حالة إصابتها، يجب علاجها إما بالجراحة وإما بالعلاجات الأخرى، حتى نضمن التئام هذه الأربطة وعودتها إلى الحالة الطبيعية.

سبب آخر للخشونة، هو الوزن الزائد وضعف العضلات، مما يؤدي إلى التحميل بصورة غير طبيعية على الغضاريف، ويؤثّر على ميكانيكية حركة المفاصل. وهذا السبب من الأسباب الأكثر انتشارًا في العالم حاليًّا. ومن ناحية أخرى، الانتظام في ممارسة الرياضة للحفاظ على حالة العضلات تلعب دورًا هامًّا في استقرار المفاصل وحركتها بصورة طبيعية.

علاج الخشونة

في الحالات المُبكّرة من خشونة المفاصل، يكون التركيز الأساسي على علاج الأسباب وإيقاف تطور الخشونة، والسماح للجسم بأن يستردّ عافيته، ويعمل على إعادة تكوين ما تهدم من أنسجة. فإذا كان السبب اعوجاجًا في المفصل أو تشوّهًا بالعظام، يتم تقويم هذا الاعوجاج أو التشوه. وإن كان السبب، التهابات نتيجة أمراض الجهاز المناعي، فيكون التركيز على علاج هذه الالتهابات والأمراض. وإن كان بسبب إصابة في أربطة أو غضاريف، فيتم علاج هذه الإصابة بالمنظار الجراحي. أما إن كان السبب ضعفَ العضلات وزيادة الوزن، فيكون العلاج بتقوية العضلات بواسطة العلاج الفيزيائي وممارسة الرياضة، ومعها تقليل الوزن تحت إشراف طبيب متخصص في هذا المجال. وهناك طرق متعددة لتقليل الوزن يحددها الطبيب المختص حسب حالة كل مريض،

ومنها الحمية الغذائية والأدوية والإبر الصينية، وجراحات تدبيس المعدة وشفط الدهون... إلخ.

إذا تطورت حالة الخشونة، فيمكن استعمال بعض المسكِّنات مع علاج السبب كما ذكرنا، ولكن يجب الحذر من استعمال المسكِّنات بكثرة، لأن كل هذه الأدوية لها أعراض جانبية كثيرة على المعدة أو الكلى أو الكبد... وبالتالي فكثرة استعمال المسكِّنات، قد يؤدي إلى أضرار كبيرة مع مرور الوقت.

في الحالات التي لا تستجيب إلى ما سلف، يمكن اللجوء إلى ما يسمى "الحقن الموضعي" للركبة بالسائل الزلالي؛ وهو الزيت الذي خلقه الله سبحانه داخل المفاصل لتليينها. وبالتالي فحقن السائل الزلالي داخل المفصل، هو حل آمن ولا يوجد مضاعفات له بشرط أن يتم الحقن بواسطة طبيب متخصص، وأن يتم الحفاظ على قواعد السلامة من تعقيم وتخدير موضعي، ومراعاة للأعصاب والشرايين.

بالنسبة للحالات التي لم تستجب لهذا العلاج، يمكن اللجوء إلى العلاج الجراحي. وهناك عدة أنواع من العلاج الجراحي يتم تحديد النوع المناسب حسب الفحص الطبي، ونتيجة الفحوص من أشعة إكس، وأشعة بالرنين المغناطيسي، حيث إن الأشعة العادية تعطي الطبيب المعالج تقييمًا عن العظام والأنسجة المُتكَلِّسة، لكنها لا تظهر فيها الغضاريف أو الأربطة أو العضلات. ولكي يتم تقييم كامل للأربطة والغضاريف والعضلات قبل الجراحة، يتم استعمال أشعة الرنين المغناطيسي لهذا الغرض.

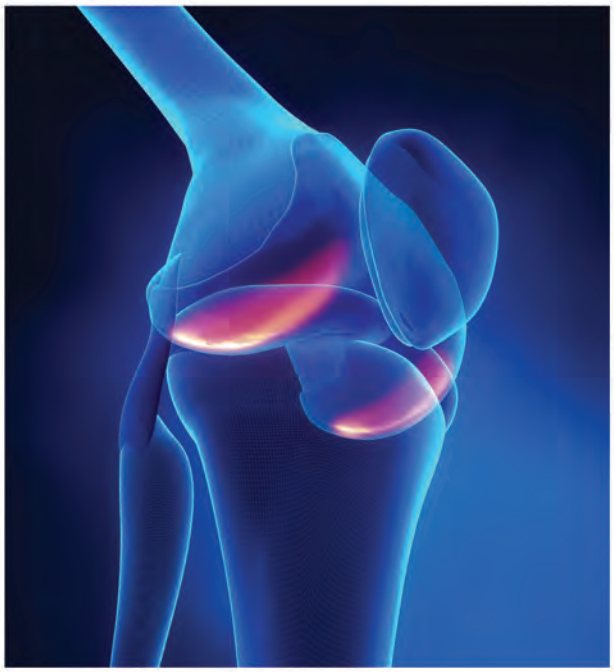

من طرق العلاج الجراحي

١-العلاج بالمنظار: ويتميز هذا العلاج بأن المريض لا يحتاج إلى الإقامة بالمستشفى أكثر من يوم واحد فقط، ولأن هذا العلاج لا يصاحبه جروح كبيرة أو قطع بالأنسجة، فهذا يجعل فترة النقاهة أقصر والعودة للحياة الطبيعية أسرع. وبالمنظار يتم علاج الغضاريف المصابة والخشونة والأربطة المُتهتّكة. ولكن مفعول جراحة المنظار، تختلف من مريض إلى آخر، ونسبة النجاح في حالات الخشونة غير واضحة، وفترة التحسن بعد المنظار قد تتراوح بين عدة أشهر إلى عدة سنوات، وبالتالي فهو حل جيد لصغار السن ومن يعانون من خشونة بسيطة واضحة السبب، بشرط أن لا يكون معها وزن

زائد أو ضعف في العضلات.

٢–جراحة تغيير المفصل: حيث يتم تركيب سطح ناعم ليحلّ محلّ الغضاريف المتآكلة والسطح الخشن. وهذه الجراحة نسبة نجاحها عالية، بشرط استعمالها في كبار السنّ، ممن لا يتحركون كثيرًا ولا تتطلب حياتهم أعمالاً عضلية شاقة، لأن المفاصل الصناعية لها عمر افتراضي يتراوح بين ١٢–١٥ سنة في أغلب الأحوال، يتم بعدها إعادة تغيير المفصل بآخر جديد. وبالتالي فللحفاظ على عمر هذا المفصل الصناعي، يستلزم أن تكون نوعية حياة المريض مناسبة، فمثلاً تغيير المفصل أكثر ملاءمة لمن يعمل أعمال مكتبية عن مَن يعمل في البناء أو الفلاحة.

آفاق المستقبل في علاج الخشونة

إن أفضل طريق للعلاج، هو الحفاظ على الأنسجة الحية التي وهبنا الله ﷻ إيّاها في جسمنا. وهذا أفضل بكثير من تركيب أشياء صناعية أو نقل أنسجة من جسم غريب إلى جسمنا. ولهذا نسعى ويسعى كل العلماء، لتطوير علاجات تُشجّع على إعادة تكوين الغضاريف وإحلالها محل الغضاريف المصابة، ومن هذه العلاجات، استخدام البروتينات المشتقة من الصفائح الدموية والسائل النخاعي، واستعمال الخلايا الجذعية. وكل هذه الطُرق ترتكز حول أخذ البروتينات أو الخلايا من الإنسان نفسه، ثم إعادة حقنها لنفس الإنسان بعد تعريضها لتنشيط بصورة معينة أو تركيز لبعض المواد منها. ولا يزال هذا المجال تحت التجربة والبحث لتقييم مدى فاعليته على المدى الطويل، ولكن الأبحاث التي تتعلق بهذا الموضوع مُبشّرة ومُشجّعة.

خشونة المفاصل، من الأمراض المنتشرة، وهناك الكثير من الحلول لها. ولا يزال العلم يسعى للوصول إلى أفضل سبل العلاج، ونتوقع في المستقبل أن يقل دور العلاج الجراحي في خشونة المفاصل، ويحل مكانه طرق أخرى تجعل العلاج أسهل على المرضى. ولكننا لم نصل إلى هذه المرحلة بعد. ■

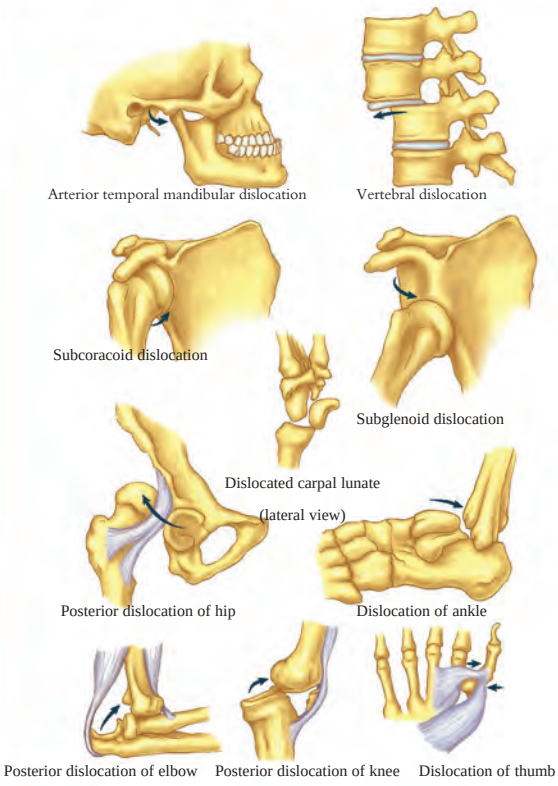

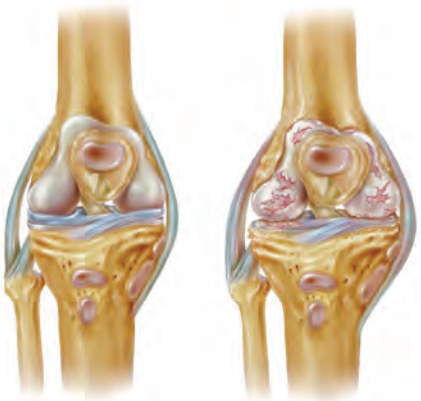

غضاريف متآكلة

مفاصل الجسم

(*) أستاذ جراحة العظام، جامعة عين شمس / مصر.

د. سلمان العودة*

المدنية مرآة تعكس روح الأمة وتفصح عن معدِنها.. أما السلوك الراقي والأخلاق السامية، فهي لسانها البليغ الذي يعلن عن أصالتها.

* * *

(الموازين)

سَبَحات الإلهام

كان لديه مشكلة اختلاس لم يعرف لها وجهًا، ثلاث سنوات والمحاسب الأمين يفكّر في الأمر دون نتيجة. الإلهام يهجم عليه ليلاً ليصحو ويركض إلى القلم ويكتب أشياء، ثم يعود إلى فراشه.

تسأله زوجه صباحًا عمّا كتب، فيرفع حاجبيه مستغربًا، ويذهب ليجد أنه كتب بشكل نهائي حل المشكلة التي أرّقته طويلاً وحرمته الرّقاد.

إلهام تحمله الرؤيا، يقع على غير توقع ودون مقدمات أو أسباب محددة. رؤيا العزيز متصلة بفراسة وتوسّم، فالذي قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾(يوسف:٢١) فأصاب الحقيقة، كان صادق الرؤيا، وحكاية القرآن عنه تدل على صدق حديث. فأصدقُهم رؤيا أصدقُهم حديثًا، وليس ممكنًا فصل المنام عن اليقظة.

عينٌ ثالثة ترى ما لا يراه المبصرون.. نسيج من المعاني الروحية والعقلية، وتلبُّسُ المستقبل بالحاضر، وامتزاج التجربة بالعفوية، ذلك هو "الإلهام"؛ موهبة نفسيّة ترسم الحلّ وتنير الطريق. والقلم هو البندقية التي تصيد هذه الطريدة السانحة. الفكرة الملهمة الجديدة والكاشفة التي تهاجمك على غير ترقّب ودون انتظار، نوع من الحدس والاستبصار العميق والقراءة الخفية.

لأن الحيوان بدون عقل، فهو يعتمد على الإلهام فحسب؛ في طعامه وشرابه وتزاوجه، وفي معرفة العدو والصديق، وفي تقدير المخاطر، وتدبير كيفية تجاوزها، ولذا سماه الله تعالى وحيًا: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل:٦٨).

الإنسان يملك التعقل وهو عملية حسابية مدروسة، فيها المقدمات والنتائج وهي مناط التكليف والحساب والمساءلة. ويملك الغريزة التي تجعل طفلاً وليدًا يلقم الثدي، ويبكي ويخاف ويفرح ويتألم.

والذي يملك الإلهام والفراسة؛ "فمن لم ينفعه ظنُّه لم ينفعه يقينه" كما يقول الرجل المحدَّث الملهَم عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان لا يقول لشيء "أظنه كذا" إلا كان كما يقول.

طاقة روحية، ليس مهمًّا أهي الحاسّة السادسة أم المخّ القديم، ففي كل حال الأمر محاط بقدر من الغموض، لأنه متصل بالروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(الإسراء:٨٥). الإلهام ظن، وهو الحق دون دليل.

الغربة تُلهِم.. فالغربة حرمان، والمحروم يقرأ بشكل مختلف ويلتقط المعنى من زاويته الخاصة.

أحمامةَ الوادي بشرقيّ الغَضا
إن كنت مسعفةَ الحبيب فرجّعي
إنّا تقاسمنا الغَضا فغصونُه
في راحتيك، وجمرُه في أضلعي

الحِسّ الإبداعي ليس كذبة مصدرها وادي عبقر.. فحين يدخل الشاعر الملهم في تجربة جديدة، ينفصل عمّا حوله، وتتحول عنده الأشياء العادية إلى إيحاءات عميقة وكأنها تعبّر

عن ذاته ومعاناته.

الحب مصدر للإلهام.. فالتجاذب الروحي والعاطفي يمنح التألق والدافعية، وينشط الاستعداد لتلقّي الإلهام. والمرأة ذات القلب النابض والعاطفة الحية، تستقبل الإلهام وتملك الحدس أكثر من الرجل، فهي أقدر على قراءة المجهول واكتشاف المستور.. قلب الأم يلهث وراء "جنينها" الذي يظل جنينًا ولو بلغ السبعين.. وقلب الزوجة دليلها الذي لا يكاد يخطئ حين يجيب على الأسئلة والمخاوف، أو يمنح الأفراح والآمال والتطلعات المستقبلية.. المرأة ملهمة أكثر، لأنها تحب أكثر.

الصفائية الذاتية مصدر إلهام.. فمن صحّ جَنانُه صحّ لسانُه.. والتقيُّ النقيّ يُلقَّى الحكمةَ: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾(الأنفال:٢٩).. والقلب الصافي، كالمرآة المصقولة تنعكس عليها الحقائق.

القرب من الله ﷻ، في لحظة تجلٍّ وبوحٍ بدعوة.. فالدعوة إلهام. "اللهم ألهمني رشدي". فالله مانح الإلهام، والدعاء سبيله، والإيمان حافزه.

السكينة هي الحالة النفسية الملائمة للإلهام، هي "لَمّة الملَك". والإلهام حالة ملائكية، وربما كانت العزلة سببًا في التأمل وتهيئةِ النفس لتلقّي الفيض الرباني.. فلا غرو أنْ كان انتظار الصلاة بعد الصلاة، مما يحُطّ الخطايا ويرفع الدرجات، وأنْ كان الاعتكاف من سُنّة المرسلين، وأن قدّم الله لرسوله ﷺ بين يدي رسالته بتقدير التحنّث في غار حراء الليالي ذوات العدد.

فكّرت أيامًا طوالاً في أمر دون ظَفرٍ بطائل، في لحظة خاصة جاء الحل حين توقف التفكير، وتراجعت الأسباب. لا تجعل الهمّ في بؤرة العناية ولا تُلحّ، فشدة الإلحاح تعرقل الإلهام، ولا تعجل فالعجلة "لَمّة الشيطان". وحذارِ أن ترمي بالحل في ظلمات اليأس، فالإغلاق هو الآخَرُ من إلقاء الشيطان: ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾(البقرة:٢٦٨)، ﴿لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٨٧).

دع الأمل يعمر قلبك ولو لم تر الضوء

ربما تقتبس نار الإلهام من مشاهدة الناس أو سماع كلماتهم أو قراءة وجوههم، أو من رؤية الطبيعة وتأمل مجاليها ومظاهرها الآسرة.

المشاهدات البسيطة، العلاقات الجديدة، مع شخص أو كتاب أو بلد أو عمل أو حالة، هي فأل جديد باحتكاك ملهم يصنع فرقًا.. لا مندوحة عن التفكير والدراسة وتوظيف الإمكانات العقلية، بيد أنها وحدها لا تكفي.

مائةٌ من كبار أثرياء العالم الناجحين، أكدوا أنهم يعتمدون على دراسة الجدوى، ولكنهم يعتمدون معها على أمر آخر مهم هو الفراسة أو الإلهام.

التجربة السابقة أساس.. القراءة المستديمة بناء..

العمر تراكم.. فالشباب أكثر حيوية وثقة وإنجازًا، والكبار أنضج وأحكم.. هذا التوزيع الفطري، يرشّح الحراكَ الحالي للنجاح متى تظاهرت عليه الأطراف.

شباب يأخذ زمام المبادرة للتغيير، ويسمح للكبار أن يقودوا المرحلة ليأخذ هو دور الرقيب والمحاسب.

الروتين المألوف يقتل الروح ويئد الطموح، وبدوّامته تذبل الملكات الإبداعية والطاقات الروحية، وتُنتَقَص إنسانية الإنسان صاحب الأشواق والأحلام، لصالح الآلة الصماء الخاوية.

حين تأخذ الناس بالأنظمة الصارمة والأوامر العسكرية والعقوبات التأديبية، تحصل على استسلام مؤقت مذعن، ولكن مع نفوس يخيّم عليها اليأس ويأكلها الحقد، وأرواح ذابلة لا تعرف معنى الحب، ولا معنى الصداقة، ولا معنى الولاء.

ضيقُ الفرص في مجتمعات شابة مرتفعةِ النسبة في مواليدها، منخفضةِ النسبة في إفساحها واحتوائها ووعيها بمتطلب العيش الكريم، هو سببٌ وجيه للتحاقد والتحاسد، ومدعاة أن ينشغل الفارغ بملاحقة مَنْ حوله.

أن تُدرّب القلب كما العقل كما البدن، أن يكون عصيًّا على الاستفزاز والإيذاء، عصيًّا على تَقبّل الحقد والكراهية، محافظًا على صفائيته، فذلك معناه أن نكون ذا جاهزية عالية لتقبّل الإلهام.

الإلهام لا يحرّم الحلال، ولا يحلل الحرام.. هو ومضة إشراق تلمع في النفس لتعبّر عن كلمة موحية تنضح بالحكمة، وتتشح بالجمال، وتحصد القبول حتى يقول سامعها: عبّرتَ عما في نفسي، وكأنما أنا الذي قلتها. إنها كلمة النجاح التي يدعيها آباء كثيرون.

دون أن تعرف السبب، قد يحملك الإلهام على شيء ما، كما عمل ذلك الإطفائي الذي شارك في إخماد حريق، وتم إنقاذ جميع المستهدفين، وجد نفسه مضطرًّا بغير إرادته إلى دخول المنزل -والنار لا تزال تشتعل- لينتقل من مكان إلى مكان، وصولاً إلى غرفة حيث وجد صبيًّا قد غمره الدخان، يحاول أن يلوذ بالسرير، ويرتجف من الرعب والخوف والحيرة، فأخذه سريعًا، وبعد دقائق سقط سقف الغرفة.

لن يكون هذا الجندي -أبدًا- شخصًا مريض القلب بالبغضاء، ولا إنسانًا حقودًا، ولا ماديًّا أنانيًّا.. فالشيء من معدنه لا يُستغرب.. كن أنت ذلك الجندي، وابحث عن الطفل الذي نجاته على يدك بإذن الله، قد تجده على مقربة منك أو حتى في داخلك يئن.. أعدْ إليه بسمته. ■

(*) عالم ومفكر وداعية / المملكة العربية السعودية.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

اِنهضْ وانجُ

لو تَزلزلت الأرض من تحت قدمَيك،
وثارت براكين الدنيا، وأمطرتك نارًا وحُمَمًا،
وتحول كل شيء إلى رماد تذْروه الرياح:
فلا تيأس ولا تقنط!
بل قُمْ من جديد، وشَمِّرْ عن ساعديك،
وابدأْ البِناء، وأقمْ من الأمل جسورًا،
ومن العزم طرقًا، ومن الإرادة مركبًا...

* * *

د. فؤاد البنا*

الجسم السليم في العقل السليم

ظلت الحكمة اليونانية التي تقول "العقل السليم في الجسم السليم" تتردد طيلة قرون كثيرة. واليوم وفي ظل التطورات المعرفية الرهيبة في الطب وفي علوم التنمية البشرية، انقلبت هذه المقولة رأسًا على عقب؛ حيث أثبتت الدراسات والوقائع والقرائن، أن للعقل تاثيرات رهيبة على الجسم، وأن ما يقوله العقل ويعتقده، يتمثله الجسم سلبًا أو إيجابًا، مرضاً أو صحة، ضعفًا أو قوة.. وهذا ما ستحاول تجليته هذه المقالة.

احذر من أفكارك على صحتك

حول أهمية التفكر من زاوية علم النفس، ألّف عالم النفس السوداني الدكتور "مالك بدري" كتابه الصغير بحجمه والقيِّم بمكانته "التفكر من المشاهدة إلى الشهود.. دراسة نفسية إسلامية"، ذكر فيه أن كثرة الأبحاث في الغرب حول الأمراض النفسية، كالاكتئاب والقلق والإحساس بالوحدة القاتلة وفقدان الثقة بالذات، أدت جميعها إلى ظهور تخصص علمي جديد هو "علم المقاومة النفسية والعصبية" الذي يجمع بين الأخصائيين في ميدان العلوم الاجتماعية، وعلم النفس، وميدان دراسة كيمياء جهاز المقاومة في الإنسان. كما ظهرت مئات المؤلفات التي تدعو لتحسين صحة الإنسان الجسمية بتغيير أفكاره ومشاعره وانفعالاته، حتى وصف بعض العلماء هذه الظاهرة بـ"الثورة الثالثة" في الطب الغربي الحديث، التي كانت أولاها تطور الجراحة، وثانيها اكتشاف البنسلين والمضادات الحيوية. ذلك لأن الذي يشكل فكر الإنسان ونشاطه المعرفي، ليس هو الأحداث والمثيرات التي يتعرض لها في بيئته بشكل مباشر، بل الذي يؤثر بالفعل هو تقييمه وتصوراته لهذه الأحداث والمثيرات. فقد أُثر عن فيلسوف روماني في القرن الميلادي الأول أنه قال: "ليست الأشياء

المحيطة بالإنسان هي التي تزعجه، بل أفكاره عن هذه الأشياء".

وأوصلت الدكتورَ بدري دراساتُه وتجاربه إلى أنه ليس "العقل السليم في الجسم السليم" فحسب -كما يؤكد المثل المشهور- بل كذلك فإن "الجسم السليم في العقل السليم". وعنه اقتبسنا عنوان هذه المقالة، غير أننا نشير إلى أن هذه المقولة حكمة يونانية وليست مثلاً.

ومن خلال تتبعه الحثيث لما ينشر في الغرب حول هذه الظاهرة، وجد أن هناك مئات الدراسات والأبحاث والكتب التي أجريت في الآونة الأخيرة لتأكيد قيمة التأمل الارتقائي والعامل الروحي والإيماني في علاج سائر الأمراض.

"إن الدراسات الحديثة في ميدان الطب السيكوسوماتي "النفسجسمي"، تؤكد بأن التفكير والنشاط المعرفي للإنسان، له دور فعّال بالنسبة لإصابة الإنسان بشتى الأمراض، كما أن تغيير هذا التفكير وهذا النشاط المعرفي الذي تسبب في إحداث هذه الأمراض والاضطرابات، يساعد كثيرًا في شفاء الفرد أو تحسين حالته الصحية بقدر كبير، وهذا مصداق للأثر المشهور "لا تتمارضوا فتمرضوا فتموتوا". وأورد في كتابه هذا، الكثير من الحقائق والبحوث والنصوص التي تُبرز خطورة الفكر على الصحة وعلى الشعور بطعم السعادة.

ومن أشهر الكتب الغربية التي طُبعت عشرات الطبعات، وتُرجمت إلى عدد من لغات العالم الحية، كتاب "دع القلق وابدأ الحياة" للكاتب الأمريكي "دايل كارنيجي". أورد فيه مؤلفه حقائق مثيرة عن القلق وآثاره وتداعياته، وعن السبل المهمة في تحليل القلق وفي تحطيمه قبل أن يصل إلى الفرد، وعن القاعدة الذهبية لقهر القلق، وكذا سائر الطرائق لقهر التعب والقلق.

ومن خلال خبرته بالحياة وقراءاته المتعددة، ركز على أهمية الفكر في صنع القلق أو في التغلب عليه، ولذلك فقد خصص جزءًا من كتابه لهذا الموضوع، وهو الجزء الرابع الذي عَنْونَه بـ"سبع طرق لخلق اتجاه ذهني يجلب لك الطمأنينة والسعادة".

> **القلب يحمل الفيوضات التي أخذها بوساطة عالم الأرواح إلى البدن والجسم، فيثير فيه نسائم السكينة والاطمئنان.. القلب كالقلعة الحصينة لصحة الفكر واستقامته، وصحة التصور ووضوحه، وصحة الروح ونقائها، بل حتى لصحة البدن وسلامته.**

وكان عنوان الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب هو "حياتك من صنع أفكارك". أورد فيه عددًا كبيرًا من أقوال الفلاسفة والعلماء، وعددًا من القصص والمواقف والخبرات التي تؤكد قوة تأثير الفكر على الجسم؛ فإن أفكار السعد تسعده، وأفكار الشقاء تشقيه، وأفكار الصحة تشفيه، وأفكار المرض تسقمه، وأفكار الضعف توهنه، وأفكار القوة تقويه، وهكذا.

وكان الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، قد أعجب بهذا الكتاب أيما إعجاب، واعتبره من الكتب الرائعة التي تُبرز وحدة الفطرة البشرية، الفطرةِ التي تتفق مع الإسلام جملة وتفصيلاً. ولذلك ألَّف كتابًا كاملاً للتعليق على كتاب "كارنيجي" هذا، وعَنْونه بـ"جدِّدْ حياتك"؛ حيث أصَّل لكثير من الحقائق والقصص والأقوال التي أوردها "كارنيجي"، من خلال إيراد عدد كبير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وقصص الصحابة، وسلف الأمة إضافة إلى خبراته (رحمه الله)، ليؤكد -الشيخ الغزالي- بذلك أهمية وخطورة الأفكار على حياة الإنسان عمومًا ومن ذلك صحته أو سقمه، إذ إن الأفكار سلاح ذو حدين، فيمكن أن تكون أداة للعمار، ويمكن أن تكون وسيلة للدمار.

وفي كتاب آخر للشيخ الغزالي -رحمه الله- نجده يؤكد على هذه القضية فيقول: "بعض الأطعمة يورث من يتناوله صداعًا في الرأس واسترخاء في الأعضاء وانقباضًا عن الأعمال.. وبعض ألوان المعرفة يترك في النفوس من التطيُّر والخمول مثلما تتركه هذه الأغذية الرديئة في الأجسام. وحقيقٌ بنا أن نفحص مصادر المعرفة التي توجهنا، وأن نتدبر فعلها في مشاعرنا وأفكارنا".

"فقيه" الصحة النفسية والتنمية البشرية

ظهر في العقدين الأخيرين عَلَمٌ برز في الصحة النفسية، وهو العالم المصري الدكتور "إبراهيم الفقي" رحمه الله، فقد ظل يترقى في هذا المضمار حتى صار خبيرًا عالميًّا يُستدعى لإقامة الدورات التدريبية، وألَّف عددًا كبيرًا من الكتب.

وما فتئ في كل كتبه يؤكد على خطورة الأفكار المعتلة

على صحة الإنسان، حيث تؤدي إلى اعتلالها، موردًا من الأدلة والبراهين على ذلك ما لا يحصى من قصصه ومعالجاته كمعالج نفسي ومدرب عالمي في البرمجة العصبية والطاقة، إضافة إلى عشرات الدراسات والبحوث والأقوال التي نقلها عن أساطين الطب النفسي، وفلاسفة ومفكري العالم وخاصة في الغرب، حيث وصلت العلوم إلى الذروة، وحيث يعمل؛ إذ إنه كان يعمل في كندا.

لقد ارتقى الدكتور "إبراهيم الفقي" في هذا العلم مرتقى صعبًا حتى صار فقيهًا وخبيرًا فيه، ومن ثم صار (الفقي) اسمًا ومسمىً، فهو فقيه التنمية البشرية والصحة النفسية.

ويبدو أن أهم كتبه في هذا المضمار كتاب "قوة التفكير". ولقد قرر في هذا الكتاب الثمين أن "العقل عنده القدرة -بإذن الله- على علاج الجسم ومساعدته على التخلص من الآلام"، وأورد فيه الكثير من الحقائق والقصص والمعلومات المؤيدة لذلك؛ ومن ذلك أن المستشفى الرئيسي في "سان فرانسيسكو" بالولايات المتحدة الأمريكية، يعالج مرضاه بالضحك وبالأخبار الإيجابية، حيث رفعت هذه الطريقة نسبة الشفاء فوق ٣٥٪. "فعندما يفكر المريض أفكارًا إيجابية ويبتسم ويتفاءل ويضحك، ترتفع نسبة الأندورفين في جسمه مما يساعده على الشفاء. وهنا أيضًا إثبات أن العقل والجسد يؤثر كل منهما على الآخر".

ونقل عن دراسات علمية لجامعات عالمية أن ٧٥٪ من الأمراض النفسية تحدث أولاً في العقل عن طريق الفكر، وأورد أن الدكتور "هربرت سبنسر" في كتابه "العلاج بالطاقة" أثبت أن ٩٠٪ من الأمراض الجسمية سببها الفكر.

وذكر أن جامعة "ييل" الأمريكية أجرت بحثًا أثبتت فيه "أن أقل من ٣٪ في العالم، هم فعلاً الذين يعيشون حياتهم باتزان وسعادة، أما النسبة الباقية فهم فقط يتمنون ذلك ولكن بالقول فقط وليس بالفعل؛ لأن أفكارهم السلبية تمنعهم من تحقيق أهدافهم".

وعن الآثار الخطيرة للأفكار السلبية، أورد أن كلية الطب في "سان فرانسيسكو" أجرت بحثًا سنة ١٩٨٥ أثبتت فيه أن التفكير السلبي يسبب أكثر من ٧٥٪ من الأمراض العضوية، كالقلب وارتفاع ضغط الدم والصداع والسرطان.

وأورد أن نفس الكلية أجرت بحثًا سنة ١٩٨٦ عن علاقة العقل بالجسد ودور الأفكار السلبية في الإصابة بالأمراض النفسية والعضوية، وكانت النتيجة أن ٩٥٪ من الأمراض سببها العقل.

ولهذا صاغ علماء التنمية البشرية عددًا من القواعد في هذا المضمار، ومنها: كل ما تعتقدُه تجده. كل ما تَكرَّرَ تَقَرَّرَ.

عقلُك يؤثِّر على جسمك

حتى لا يَظنّ بعض القراء أن هذا الأمر من شذوذ بعض العلماء والمفكرين، فقد قمت بجمع عدد هائل من الأقوال في هذا السياق لعلماء وحكماء ومصلحين وأطباء وخبراء، من مختلف الأعراق والديانات والمدارس والتخصصات، لكن سأكتفي بذكر بعضها.

ونبدأ من مطلع الشمس في أقصى شرق الكرة الأرضية، حيث تقول الحكمة اليابانية: "احذر ما تفكر فيه، لأنه من المحتمل أن تحصل عليه"، وهذه الحكمة تتفق تمامًا مع الأثر الذي يقول: "تفاءلوا بالخير تجدوه" ومع نهي الإسلام عن التطيُّر والتشاؤم.

ومن اليابان إلى جاره العملاق، حيث خاطبك الحكيم الصيني "زينو" قائلاً: "تذكَّر أن أفكارك من صنعك أنت، لن يستطيع أي إنسان على وجه الأرض أن يُغيِّرها لك، ولكنك أنت الوحيد الذي تستطيع أن تُغيِّرها وتجعلها تخدمك وتساعدك على الاتزان والسعادة".

ومن الشرق إلى الغرب نقفز وعلى سندباد الحكمة نطير، فهذا الفيلسوف "سقراط"، يقول قديمًا: "بالفكرة يستطيع الإنسان أن يجعل عالمه من الورود أو من الشوك". ولهذا أطلق صيحته التي كُتبت على باب معبد أثينة: "أيها الإنسان اعرفْ نفسك". وهذا "جيمس آلن" يؤلف كتابًا بعنوانه السافر "ما يفكر فيه الإنسان يصبحه".

وانطلاقًا من هذه الفلسفة، وُجد في فرنسا فندق كبير اشتهر بأن معظم نزلائه من رجال الأعمال، قامت إدارته بتعليق لافتة في كل غُرَفه تقول: "إذا لم تتمكنوا من النوم فلا تبدؤوا بإلقاء اللوم على السرير، بل حاسبوا ضمائركم أولاً".

أما الطبيب النفسي "أريك ريكسون"، فقد قال من خلال خبرته العريضة: "إن وظيفة الطبيب النفسي هي إعادة بناء حالة الثقة والإيمان في نفس المريض".

وألَّف الدكتور "وين داير" كتاب "الحكمة في حياتنا اليومية"، قال فيه: "ما يفكر فيه الناس ويتحدثون عنه يتزايد ويصبح أفعالاً".

ويؤكد "جمس آلان" على خطورة الأفكار، وكأنه يشبهها بالحصان، والإنسان بالعربة، إذ يقول: "أنت اليوم حيث أوصلتْك أفكارُك، وستكون غدًا حيث تأخذك أفكارك". ويقول أيضًا: "دع إنسانًا يُغيّر اتجاه أفكاره، وسوف تتملكه الدهشة لسرعة التحول الذي يحدثه هذا التغيُّر في جوانب حياته المتعددة. إن القدرة الإلهية التي تكيف مصايرنا مودعة في أنفسنا، بل هي أنفسنا ذاتها. وكل ما يصنعه المرء، هو نتيجة مباشرة لما يدور في فكره، فكما أن المرء ينهض على قدميه وينشط، وينتج بدافع من أفكاره، كذلك يمرض ويشقى بدافع من أفكاره أيضًا".

ونعود إلى نقطة الوسط بين الشرق والغرب، حيث المرتع الخصيب للوسطية في العالم العربي، لنجد المفكر الجزائري "مالك بن نبي" يعيد سائر المشاكل وشتى الحلول إلى الفكر، سواء بالنسبة للفرد أو للأمة، ولهذا فإنه يحذر من خطورة الأفكار، وبالذات ما يسميها بـ"الأفكار الميتة" وهي الموروثة عن السلف، و"الأفكار المميتة" أو القاتلة وهي المستوردة من الغرب، وقد استفاض في شرحها وحذر من "انتقام الأفكار المخذولة" في كتابه الرائع "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي"، واستفاد في هذا الإطار من الدراسات الاجتماعية والنفسية والتاريخية.

وقد تزعَّم مدرسة عريضة في الفكر الإسلامي المعاصر، ترى أن أزمة الأمة أزمة فكرية، وأن المخرج منها ليس غير تغيير الأفكار.. ومن أفراد هذه المدرسة المفكر السوري "جودت سعيد" الذي ألَّف كتابه الرائع "حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وقدَّم له "مالك بن نبي".. واليوم يسير في ذات الدرب المعهدُ العالمي للفكر الإسلامي، وآخرون كثيرون من أعلام الفكر الإسلامي.

وقد خاطب العالِم والأديب السوري "علي الطنطاوي" المسلمين قبل ستة عقود فقال رحمه الله: "إنكم سعداء ولكن لا تدرون؛ سعداء إن عرفتم قدر النعم التي تستمتعون بها.. سعداء إن عرفتم نفوسكم وانتفعتم بالمخزون من قواها.. سعداء إن طلبتم السعادة من أنفسكم لا مما حولكم". وأضاف: "ويمرض الرجلان المتعادلان في الجسم المرض الواحد، فيتشاءم هذا ويخاف ويتصور الموت فيكون مع المرض على نفسه فلا ينجو منه، ويصبر هذا ويتفاءل ويتخيّل الصحة فتسرع إليه ويسرع إليها".

وكان الشاعر العربي قد فطن لهذه الحقيقة فقال:

دواؤك فيك وما تبصر
وداؤك منك وما تشعر

ونختم هذه الجولة الخاطفة في آفاق حكماء العالم بمسكٍ تركي، من صنع المفكر الداعية "فتح الله كولن" الذي أكثر من إيراد مفردات هذه القضية في عدد من كتبه.

تصور الإنسان ومعتقده هو المقدمة، ونتائجه هي المشاعر والأعمال. والنتائج دائمًا من جنس المقدمات؛ فمن يبذر اليأس والتشاؤم والحقد والقلق والحزن، لا يمكن أن يحصد النجاح والصحة والسعادة.

فقد كتب عن القلق وكيف أنه يسبب الأمراض، كالقلق على المصير والعاقبة، حيث قال عن الذين لا يحبون الله بأنهم: "سيبقون على الدوام في قلق على مصيرهم وعلى عاقبتهم المجهولة وعلى خوف".

وأوضح كيف تدمر المشاعر السلبية أصحابها، كالحقد والحسد والكراهية: "إن صرف الإنسان عمره في غمار المشاعر السلبية والسيئة، عذاب لا يطاق من جهة، ودناءة من جهة أخرى".

وما فتئ يؤكد على أن السعادة أو الشقاء، نابعان من داخل الإنسان لا من خارجه، ولهذا عظَّم القلب، حيث قال عنه في كتابه "التلال الزمردية": "فالقلب يحمل الفيوضات التي أخذها بوساطة عالم الأرواح إلى البدن والجسم، فيثير فيه نسائم السكينة والاطمئنان"، وأضاف: "القلب كالقلعة الحصينة لصحة الفكر واستقامته، وصحة التصور ووضوحه، وصحة الروح ونقائها، بل حتى لصحة البدن وسلامته".

ولهذا فإن الإسلام عنده هو الدواء، والفهم الصحيح له هو المخرج: "الذين يعيشون الإسلام كما أنزل، يحيون بقلوبهم في هذه الدنيا وكأنهم يَعُبُّون من كؤوس اللذة في جنة الفردوس".

العطاء طريق السعادة والصحة

أورد الدكتور "إبراهيم الفقي" في أحد كتبه، أن هناك عيادات

نفسية في أمريكا تعالج مرضاها بالإنفاق. وهذا يعني أن الأطباء يغيّرون أفكار الأخذ إلى أفكار العطاء، مما يؤدي بأصحابها إلى الشعور بالسعادة.

وقبل أشهر قليلة كان أغنى رجل في أمريكا وفي العالم الملياردير "بيل جيتس"، قد تبنى هذه الدعوة، ونجح في إقناع خمسين ملياريرًا بإنفاق ثرواتهم على العمل الخيري حتى يتذوقوا طعم السعادة وبهجة الحياة.

ومن خلال نقاشي مع عدد من أثرياء تيار الخدمة في تركيا، أدركت أنهم يعيشون في بحبوحة السعادة المتولدة عن البذل والعطاء، أكثر من تمتعهم بالمباهج التي تمكنهم أموالهم من الحصول عليها. ولفت نظري أن أحدهم ذَكَر أنه في أول مرة أنفق فيها عشرة آلاف دولار تحت الضغط العاطفي الشديد لخطاب أستاذه "فتح الله كولن"، وأنه شعر أثناء ذلك كأن قطعة لحم قد قُدّت من ساعده، لكنه بعد ذلك تذوَّق طعم السعادة حتى صار يستمتع بالإنفاق، ولو أن أستاذه "كولن" دعاه لإنفاق ماله كله لما تردد طرفة عين.

الإسلام يؤيد تأثير التصور على الصورة

من يقرأ نصوص القرآن بتدبر ويعي مقاصده، سيجد تأييدًا كبيرًا لأثر تصور الإنسان على صورته، ومن ثم على سائر مواقفه وتصرفاته وأفعاله.. ولذلك كانت بداية أوامر الإسلام برسم هذه الصورة الكلية من خلال الأمر "اقرأ" في سورة العلق، كأن هذا التصور هو أول مرحلة من مراحل بناء الحضارة، وهي مرحلة "العلق" الحضاري.

واهتم القرآن بتوضيح أثر الإرادة على تحقيق النجاح والسعادة والصحة. وهذه الثلاثية هي الأجر الدنيوي بجانب الأجر الأخروي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾(آل عمران:١٤٥). والصحة هي من ثواب الدنيا، فهي مشروطة بالإرادة، والإرادة اعتقادٌ مقترنٌ بتصميم، ومتسلحٌ بالأسباب التي لا تعمى عن رؤية مالك الأسباب.

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(النحل:٩٧). والإيمان هنا هو الاعتقاد الراسخ بالله الذي يملك القدرة على إعطاء الإنسان السعادة والصحة والنجاح، وهو مسخر الأسباب الموصلة إليها، والحياة الطيبة لا تكون بدون سعادة وصحة ونجاح.

وفي مثال عملي، أورد القرآن في قصة يعقوب عليه السلام إشارة إلى تأثير الحزن على الجسم، الذي قد يصل إلى حد تعطيل وظيفة من وظائف الجسم، كإصابة العين بالعمى، قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾(يوسف:٨٤).

ولخطورة الحزن والقلق على صحة الإنسان، وضح القرآن أن الغاية من الإيمان بالقدَر هي تجنيب الإنسان السقوط في هذه الهاوية، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(الحديد:٢٢-٢٣)؛ وكأن الإيمان بالقدر هو حجر الزاوية في بناء الإرادة الحديدية. والإرادة تقوي جهاز المناعة الذي يقاوم سائر الأمراض.

ولو انتقلنا إلى السنة النبوية لوجدنا إشارات عديدة تؤيد هذا الأمر، من مثل قوله ﷺ: "تفاءلوا بالخير تجدوه"، وقوله ﷺ: "داووا مرضاكم بالصدقة" (رواه البيهقي)؛ ذلك أن الصدقة تكسب الإنسان الشعور بالسعادة، والسعادة تقضي على الهموم والأكدار والأحزان، وتُكسب الإنسان الشعور بالرضا، مما يؤدي إلى تقوية جهاز المناعة ومن ثم التمنع على الأمراض. فكأن الصدقة عسلٌ معنوي فيها شفاءٌ للناس.

ونختم بالحديث القدسي الذي ورد فيه: "إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله عز وجل، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" (رواه مسلم)؛ وكلمة الخير الواردة في النص، جاءت نكرة لتعم كل خير تثمرها سائر الشعب الإيمانية، سواء كان ذلك في الدنيا أم في الآخرة. ولا شك أن الصحة والنجاح والسعادة من الخير العميم الذي جاء به هذا الدين العظيم.

وهكذا، يتبين لنا أن تصور الإنسان ومعتقده هو المقدمة، ونتائجه هي المشاعر والأعمال.. والنتائج دائمًا من جنس المقدمات؛ فمن يبذر اليأس والتشاؤم والحقد والقلق والحزن، لا يمكن أن يحصد النجاح والصحة والسعادة.

ويمكنني تشبيه أجسام البشر بأنها "أغنام"، وتُمثل الأفكار الطيبة دور الراعي، أما الأفكار الخبيثة فهي الذئاب، فلنحذر على أجسامنا من ذئاب أفكارنا. ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

د. عبد الإله بن مصباح*

دلالات الزوجية في الكون

إذا كان مبدأ الزوجية يشكل القانون المؤسس لنظام الكون مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾(الذاريات:٤٩)، فإن تجلياته على مكونات الأرض التي هي جزء من هذا الكون، تظهر على كل المستويات انطلاقًا من بلوراتها الصخرية التي من معدنها تُبعث الحياة.

فالحجر الذي هو أصل تكوين الأرض إذا وقفنا على تحليله المعدني من خلال الفحص المجهري لمركباته، فسنجده يقوم أساسًا على خاصية التبلّر (Cristallisation)؛ وهي صفة تدل على تقابل وجيهات البَلْوَرَة في زوجية دقيقة التصميم، عجيبة التماثل، تتجلى من جميع الزوايا عبر محور البلورة أو مركزها.

فإذا علمنا بأن هذه الهيئة البلورية المؤسِّسة لمعدن الصخر هي انعكاس لنظامه الذرّي، فسنقف على مشهد نرى من خلاله أن الترتيب الأساسي للذرات هو أيضًا متماثل، وأن التماثل البلوري إنما صدر من تناظر الذرات الذي بموجبه تَحدَّد المظهر الجزيئي المؤسِّس لمختلف الأشكال البلورية المؤصِّلة للمادة الصخرية لكوكبنا.

وهذا يضفي على مركّبات الحجر صفة الزوجية التي عمّت كل شيء؛ من الذرة إلى البلورة إلى الصخرة إلى الأرض التي

تتناظر أطرافها حول مركزها الكائن في نواتها الباطنية. وكل كائن حي من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان، إنما تأصلت مادته من طينة الأرض التي تبلورت مركباتها من تبلّر معدنها على تلك الهيئة البديعة من التماثل، بل ونجد أن هذا النظام البلوري الذي يقوم أساسًا على خاصية التماثل، يتأسس على سبعة أشكال رئيسية يمثل فيها المكعّب الأصل الذي تتقاطع فيه المحاور في جميع الاتجاهات الكونية. والكعبة المشرفة بشكلها المكعّب تجسّد أسمى تعبير عن هذا النظام بستة أضلع متناظرة تتماثل حولها مطلق الاتجاهات الكونية.

إن الزوجية المتجلية في كل شيء، إنما هي صفة بثها الله بوحي منه سبحانه في كيان كل مخلوق حتى تشهد المخلوقات بإفراد الوحدانية للخالق. فكان من أجل ذلك أن جُعلت الكعبة مهبط الوحي في وسط من الأرض، تتماثل حوله الأقطار لتكون رمزًا لهذه الزوجية في المكانة والمكان.

وذلك سر من أسرار هذا الكون، تُحدِّث به الحجارة التي تمثل بلوراتُها مرآة عاكسة لنور المكوِّن في دلالة على تفرد الخالق سبحانه بإفراد الوحدانية وكمال الأحدية له وحده، وإضفاء صفة الزوجية على كل ما سواه، حتى يشكل الكون مرجعًا تجريبيًّا لتأسيس النماذج التفسيرية الموصلة إلى فهم حقيقة الوجود، فكان من أجل ذلك أن خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الذاريات:٤٩).

البلورة مرآة الزوجية والذرة سر نظامها

تُشكِّل الحجارةُ في عرف الجيولوجيين، تركيبًا معدنيًّا أو عضويًّا أو مزدوجًا لمادة نشأت في القشرة الأرضية ثم تبلورت بفعل التحولات الفيزيائية والكيميائية التي طرأت عليها خلال مراحل تطورها. وبما أن تعريف المادة تعرّض بعد ظهور نظرية النسبية التي وضعها الفيزيائي الألماني "أينشتاين" إلى تغير جدلي حيث صار مفهوم المادة مقترنًا بالطاقة، أي بفاعليتها، فإن مادة الحجارة بفعل تغيرها مع الزمان والمكان، باتت أكثر دلالة على هذا المعنى بحكم ما تنطوي عليه تفاعلاتها مع المحيط من تجليات لأثر الفاعلية الباطنية التي تسري في كيانها، والتي تؤدي في الأخير إلى حصول توازن ديناميكي مع المحيط الحاضن لها بفعل تبادل المادة والطاقة بينهما.

فالحجر مهما كان أصله وظروف تكوينه، هو متجاوب باستمرار مع متغيرات محيطه. ويمكنك أن تلمس هذا التجاوب في الهيئة البلورية التي يكشفها لك تحليله المجهري؛ تلك الهيئة التي تتألق أشكالها وتتلألأ أنوارها وفقًا للتشكيلات المعدنية المنبثقة من تفاعلات الحجر مع النُسق الكيميائية الناشئة في الوسط الذي يتبلور فيه، بحيث إذا أخضعت هذا الحجر للفحص المجهري وظهرت لك معالم هذه الهيئة البلورية في الأشكال العجيبة والألوان الزاهية التي تختلف باختلاف تركيباته المعدنية المتبلورة مع متغيرات محيطه، اتضح لك أن النور الذي تتلألأ به البلورة إنما هو انعكاس لسر يخفيه نظامها الذرّي الذي من تشكيلته الكيميائية انبثقت تركيبتها المعدنية. فإن أنت سبرت أغوار هذا النظام الذي تآلفت ذراته في جزيئات "النسق البلوري" المنسجم مع قرار الحجارة، تحدثت إليك مكوناتُه بنور مكوّنها، فتنبهت إلى معنى قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(النور:٣٥)، وتحيرت في إدراك معنى قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾(النور:٣٥) بما يوحيه إليك الوصف القرآني من معان إعجازية بخصوص المغزى من ذكر الزيت الذي يضيء ولم تمسسه نار، وما دلالة ذلك على أثر الفاعلية الخفية التي أودعها الله تعالى في كيان هذه المكوّنات التي منها يسري النور الذي به يتلألأ الكون دون أن تمد بطاقة خارجية. فهذا التشبيه إذن، هو دلالة على أن مصدر النور الذي يضيء بلورة الوجود، إنما هو من سر فاعلية خفية بثّها الله سبحانه في كل موجود.

ولتأكيد هذا المعنى، دعنا نتأمل في بلورات النسيج الصخري الذي به تزدهي الأرض وتنبسط أنوارًا. هذا النسيج إذا تفحصت بلوراته، فستجدها تقوم أساسًا على ميزة التماثل؛ وهي صفة تدل على تقابل وجيهات البلورة في تزاوج عجيب مع بعضها عبر مركز أو محور البلورة. وهذا التقابل إنما هو انعكاس لثنائية التركيب الحاصلة بين الذرات في بناء النسق البلوري، مما يدل على أن نظام الزوجية

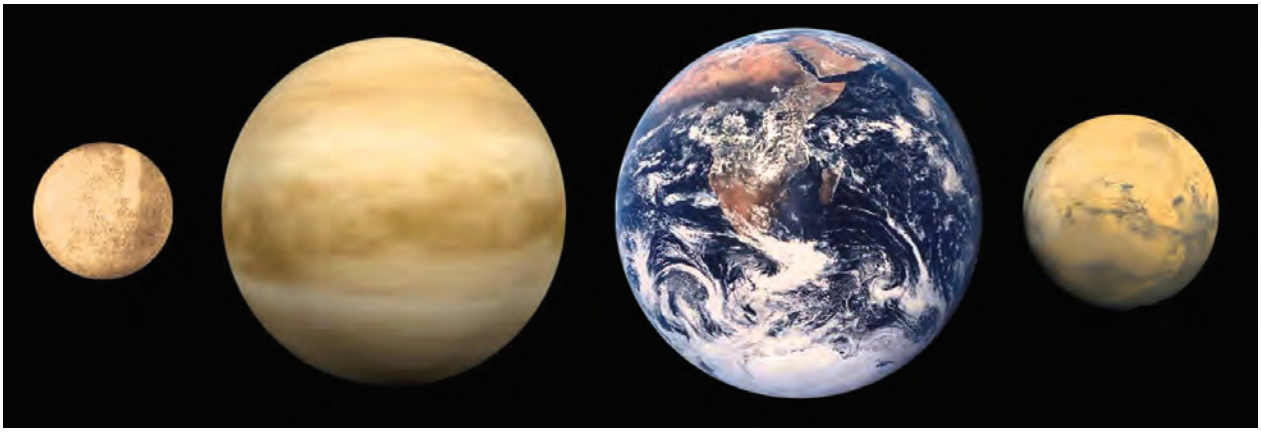

فـي البلـورة، إنما صدر عـن تماثل الذرات في بنـاء الجزيء المؤسِّـس للبلورة، ذلك التماثل الذي يسري في الحجر ومنه إلـى الجبـل فالأرض التـي تتماثل حـول مركزهـا الأطرافُ.

فـإذا رأيت الكون كمُل فيه البناء بمماثلة الأرض للسـماء كما نستشـف ذلك من قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَـبْعَ سَـمَوَاتٍ وَمِـنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(الطلاق:١٢)، وهي إشـارة إلى تقابـل كتلتي الأرض والسـماوات، فاعلـم أن ذلك من وحي الله إلـى الكـون بحكـم قولـه ﷻ: ﴿وَأَوْحَـى فِـي كُلِّ سَـمَاءٍ أَمْرَهَـا وَزَيَّنَّا السَّـمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾(فصلـت:١٢). وإذا رأيت الأرض فُرشـت حجارة أساسها البلورة التي هي سر الزوجية فيهـا، فاعلم أن ما تحدّث به أسـرارها هو مـن وحي الله إليها القائـل في حقها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(الزلزلـة:٥). وإذا رأيـت هذه الحجـارة أخرجت نباتًا ينمو في زوجية عجيبة الحسـن متألقة الجمال، فاعلم أن ذلك من وحـي الله إليهـا الذي قال فـي حقها: ﴿وَتَـرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَـإِذَا أَنْزَلْنَـا عَلَيْهَـا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَـتْ وَأَنْبَتَتْ مِـنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(الحـج:٥). وإذا رأيـت النحلة تمتص رحيق هذا النبات فتبني خليتها على أسـاس من التماثـل الازدواجي يذكّر بذاك الـذي تتألـق به هيئة البلـورة، فاعلم أن ذلك ممـا أوحى إليها ربها القائل في حقها: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾(النحل:٦٨).

مما يدل على أن هذه الزوجية المتجلية في كل شيء، إنما هي صفة بثها الله بوحي منه سبحانه في كيان كل مخلوق حتى تشهد المخلوقات بإفراد الوحدانية للخالق. فكان من أجل ذلك أن جُعلت الكعبة مهبط الوحي في وسط من الأرض، تتماثل حوله الأقطار لتكون رمزًا لهذه الزوجية في المكانة والمكان.

الكعبة رمز الزوجية في الأرض

إذا رجعنا إلى مختلف مراحل المد القارّي للأرض، ورسـمنا دائـرة على خريطتها نجمـع فيها كل القارات، وجدنا مركزها فـي الكعبـة. كمـا أننـا إذا عالجنـا هـذا المعطـى من شـكلها المكعـب، فسـنجده دالاً على نفس المعنـى. فنحن نعرف أن المكعـب هـو أصل النظـام البلوري المكون لـكل مادة صلبة علـى وجه الأرض، لأن فيه تتسـاوى كل المحاور المتقاطعة في جميـع الاتجاهات الكونية، الشـيء الذي يخوّل للمكعب صفـة الكمـال في التماثـل (Perfect Symetry). والكعبة بشـكلها المكعب، تجسد هذا المعطى بستة أضلـع متماثلة، كل ضلـع متجـه إلى جهـة معينة من جهات الكون: الأول إلى السـماء، والآخـر المقابل لـه إلى الأرض، والأربعـة الباقية يتقابل فيها الشـمال الشـرقي مـع الجنـوب الغربي والشـمال الغربي مـع الجنـوب الشـرقي، بينمـا تتجـه الأركان العموديـة التـي فيها تتقاطـع خطـوط هـذه الأضلـع نحـو الاتجاهـات الجغرافية الأربعـة الأصليـة للأرض، مشـكّلة مـن الكعبة نقطـة تحديد لمطلـق الاتجاهات الكونيـة. وتلك ذروة الكمال في الزوجية يعبـر عنهـا التماثل القائم في الكعبـة بين أضلعها وكذلك بين أركانهـا، إذ ليـس هنـاك بُعـدٌ في الكـون إلا وتوجهـت إليه. فكانـت من أجل ذلك هـدى للعالمين كما وصفها الله ﷻ في قولـه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّـذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦).

وهـذا المشـهد يتضح أكثر إذا ما عالجنـاه من زاوية البعد الزمني لنشوء الأرض وامتدادها المستمد من كشوفات العلم، تلك الكشوفات التي جاءت نتائجها موافقة لنصوص الوحي. فقـد جـاء فـي "النهاية" في غريـب الأثر، قول رسـول الله ﷺ: "كانت الكعبة خُشْعةً على الماء فدُحِيتْ منها الأرضُ".

هـذا الحديـث إذا تلمسـنا فهمـه مـن خـلال المعطيـات الجيولوجيـة الحديثـة، فسـنجده دالاً بالحـس والمعنـى على أن الكعبـة تبقـى النقطة الأولى المرشـحة لبزوغ اليابسـة، ثم

امتدادها في أرجاء البحر الكاسح عند بدء التكوين: خاصة وأن "الخُشْعة" كما جاء في نفس المصدر تعني: "أَكَمة لاطِئةٌ بالأرض، والجمع خُشَعٌ، وقيل هو ما غلبت عليه السهولة، أي ليس بحجر ولا طين". وفي هذه المواصفات لكلمة "خُشْعة" التي كما سنرى، نجد لها سندًا علميًّا في التصنيف الجيولوجي لميكانيزمات نشوء وتبلور قشرة الأرض، نلمس تلميحًا إلى أن الكعبة قد تكون أول أكمة انبثقت من باطن الأرض المنصهر، حتى إذا ما برزت على سطح الأرض المغمور بالمياه وهي في مرحلتها الجنينية لَزِجَة، دُحِيت منها اليابسة فانتشرت القارات. وهو المشهد الذي يعززه تفسير القرطبي لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾(البقرة:١٢٧)، حيث قال -رحمه الله- أن مجاهدًا قال: "خلق الله موضع البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرض بألفي سنة، وأن قواعده لفي الأرض السابعة السُّفلى". ذلك التفسير الذي يتصل بما سبق أن قلناه حول انبثاق الكعبة كأول أكمة من باطن الأرض المنصهر على سطحها المغمور بالمياه عند بدء التكوين؛ مما جعل أرض مكة تسمى في كتاب الله بـ"أم القرى"، أي الأصل الذي تفرعت منه كل البراري على سطح الأرض.

فإذا أقررنا بأن الكعبة في وسط الأرض، علمًا بأنها تقابل في السماء البيت المعمور كما دل على ذلك البيان الوارد في حديث رسول الله ﷺ، الذي جاء في معرض تفسير ابن كثير لقوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾(الطور:٤)، حيث قال رحمه الله: "قال قتادة والربيع بن أنس والسُّدِّيّ: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه ﷺ: "هل تدرون ما البيت المعمور؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنه مسجد في السماء بحيال الكعبة، لو خرّ لخرّ عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم". فذلك يعني أن الكعبة توجد في محور التواصل مع البيت المعمور، ذلك المحور الذي حوله تتماثل منظومة الكون في سجود وتسبيح لخالقها الذي جاء كتابه معجزًا في وصفها، وجاء حديث رسوله ﷺ صادقًا في تثبيت صحتها، حتى تعي الأمة بكل المعايير العلمية ومن خلال موقعها الوسط الذي خصها الله به في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣) ما ترمز إليه معالم الزوجية من أسرار حقيقة التوحيد، التي يشهد بها للموجد كل شيء في هذا الوجود.

وهذا يدل على أن ما تحمله الزوجية من أسرار ودلالات، تلتقي معانيه في حقيقة واحدة تدل على صفة الوحدانية التي تفرد بها موجد الوجود المنزه عن التشبيه والتمثيل الذي قال في حق ذاته العلية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى:١١). من أجل ذلك جاءت في عبادات المسلم، كثيرٌ من المشاهد التي ترمز إلى انسجامه الفطري مع نظام الزوجية في الكون، بحيث إذا تأملنا في مشهد السجود من محفل الساجدين حول الكعبة، فسنجده يجسد تماثلاً تزاوجيًّا حول محور التواصل بين السماء والأرض، يذكّر بذاك الذي يسري في كل مكونات الكون، من الذرة التي تتماثل فيها الإلكترونات حول النواة إلى المجرة التي تتماثل فيها الكواكب حول الشمس في إشارة إلى وحدة السجود التي عمت كل الوجود. كما أننا إذا تأملنا في مشهد الطواف من موكب الطائفين حول الكعبة، فسنجده يمثل تجسيدًا للجذب والاستقطاب الذي يحصل لكل شيء حول أصله.

فالكعبة بموقعها الجذاب الذي يجعل أفئدة الناس تهوي إليها، يطوف حولها الطائفون بقلوب مستقطَبة نحوها، لأنها تشكل الأصل الذي منه تفرعت الأرض أمّ الإنسان، تمامًا كما تُشكِّل النواةُ التي حولها تحوم الإلكترونات في نفس اتجاه الطواف الأصلَ الذي تشكلت منه الذرة، وكما تُشكِّل الأرض التي حولها يدور القمر في نفس الاتجاه منجذبًا إليها الأصلَ الذي منه انفصل، وكما تشكل الشمس التي حولها تدور الأرض في نفس الاتجاه الأصل الذي منه انبثقت الأرض... إلى غير ذلك من المشاهد التي تعبر عن أن الإنسان في لحظة السجود والطواف وغيرهما من العبادات، يترجم أسمى عبارات الارتباط بالأصل، من خلال طلبه التحرر من رق الذات والعروج في شوارق الصفات. تلك الصفات الموصلة إلى الله ﷻ التي سِرّها من أصل تلك النفخة الإلهية، التي بثها سبحانه من روحه في كيان الإنسان من يوم خلق آدم سويًّا. فكان أن أُتبعت الآيةُ محور هذا الفصل بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾(الذاريات:٥٠-٥١) في تلميح إلى أنه سبحانه، الواحد الأحد الذي لا مفر منه ولا منجى ولا ملجأ إلا إليه؛ إذ لا نِدّ له ولا مثيل ولا نظير يمكن أن ينشُل العبدَ من أوحال نفسه، وذلك ما ترمز إليه دلالات الزوجية في هذا الكون. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

سعود الصاعدي*

يا حادي الركب

ما هزّ قلبي لا وجدٌ ولا غَزَلُ ... ولا رمتْهُ بألحاظ الهوى مُقَلُ
ذاك امرؤ القيس يبكي في الثّرى دِمنًا ... وتلك أفئدة العشاق يا طَلَل
ما الحبُّ إلا أحاديثٌ منمّقةٌ ... قد حاكها من قميص الليل من غفلوا
ولا الصباباتُ إلا خدُّ فاتنةٍ ... تصوغها عن أحاديث الهوى القُبَلُ
سُحقًا لمن مجده في وصلِ غانيةٍ ... تكسو مفاتنَها الأثوابُ والحُلَلُ
لكن في أضْلُعي شوقًا أكابدهُ ... وليس تُسعِفُ إلا الشاعرَ الجُمَلُ
يا حادي الركب في درب العلا شرُفتْ ... بك المعالي ودربُ الدين متصلُ
لم يُثنِ سَيْرَك في البيداء ذو ظفر ... ولا ثَنَى العزمَ لا يأسٌ ولا مَلَلُ
سِرْ فالمطايا بها شوقٌ يسيّرها ... وفي النفوسِ أزيز الشوق يشتعلُ
سِرْ في رحابٍ إلى الرحمن ما بقيتْ ... بك السنون وما أبقى بك الأجل
سِرْ واطّرح كلَّ أرزاء الهوى، فلنا ... يلوحُ في سبسب الديجورة الأملُ
لا تُهمل العيس دعها فهي جامحةٌ ... ما صَدّها في المسير الوهنُ والكللُ
وإن تبدّت لك الأضواء في بلدٍ ... به الحطيم فقل: يكفيك يا جَملُ
وإن رأيتَ شعاع البيتِ مؤتلقًا ... يفيض بالنور والأرواحُ تبتهلُ
فاقصِد بنا البيت وارو غلّتي كرمًا ... من ماء زمزم فهو الطاهرُ الزلُلُ
وسِرْ بنا في شعابٍ نام سالكُها ... لعل عيني بأرض الطهر تكتحلُ
يا حادي الركب ما كلّت عزائمُنا ... ولا تولّت بنا الأهواء والملَلُ
فليس إلا هدى الرحمن غايتنا ... وليس إلا الذي قالت لنا الرسلُ
جئنا نلبّي نداء الحق تسبقنا ... قلوبُنا فهي للرحمن تمتثلُ
جئنا فأرواحنا قد حلّقت شرفًا ... إلى السماء فلا بدرٌ ولا زُحَلُ
يا قاصد البيت طِبْ نفسًا برؤيتهِ ... ويا حجيج بلاد الله فابتهلوا
تعطّلتْ لغة الأقوال فانهمري ... بالدمع عند مقام الركن يا مُقَلُ

(*) شاعر سعودي.

أ.د. عبد المجيد بلعابد*

استشعار الجاذبية عند النبات

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(إبراهيم:٢٤).

تعتبر الجاذبية من أهم العوامل الفيزيائية تأثيرًا على الكائنات الحية منذ خلق الله السماوات والأرض. وهي مَعلَمة فيزيائية كالضوء والحرارة والرطوبة والضغط الخارجي والارتفاع فوق سطح البحر. وقد تكون هذه العوامل مجتمعة في تأثير واحد كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:١٢٥)، هنا يجمع الله تعالى بين معلمتين هما الارتفاع عن سطح الأرض، ونقص الأكسيجين في الهواء عبر الضغط الخارجي، وقد يضاف إليهما عامل الجاذبية.

والنباتات من بين مخلوقات الله التي تؤثر بكل هذه المعالم، ليس لها وسط داخلي (Milieu İntérieur) كالحيوانات، مما يجعل التأثير مباشرًا. وهذا الوسط النباتي هو وسط طبيعي خارجي يتقلّب بتقلبات الجو، ويخضع لمعاملات فيزيائية جِدُّ دقيقة ومتنوعة ومعقّدة في الزمان والموقع الجغرافي. وللجاذبية تأثير مذهل على النباتات، وقد منح الله هذه المخلوقات أعضاء يمكنها أن تحلل النظم الخارجية المحيطة بها بدقة عالية ومعجزة. إن الأعضاء الحساسة لعامل الجاذبية، قد ذكرت في الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(إبراهيم:٢٤) أن الأصل ثابت وهي الجذوع والفروع في السماء. فهذان العضوان هما الأكثر تأثرًا بالجاذبية. والدارس لهذه الظاهرة يمكنه أن يسلط الضوء على عمل الخلايا الحساسة المكونة لهذه الأعضاء. فعندما يوضع جذر أفقيًّا في حقل الجاذبية الأرضية، فإن طرفه ينحني نحو الأسفل ليعود إلى اتجاه نموه الطبيعي. وهذا ما يدعى بـ"النمو الجاذبي". وهذا النمو يتوقف إذا اجتث رأس الجذر حيث تتموضع الخلايا الحساسة للجاذبية. (الصورة رقم١)

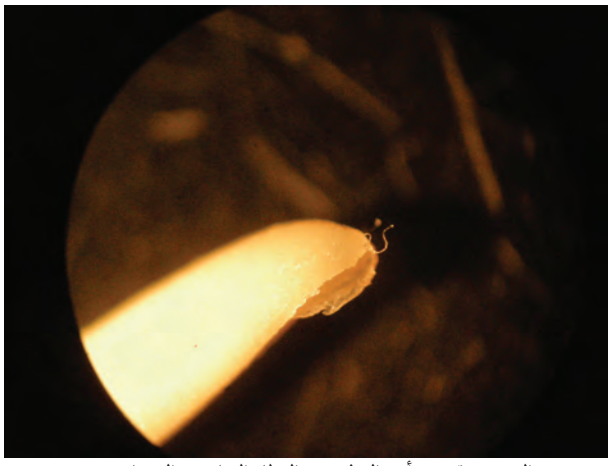

الصورة رقم١: رأس الجذر مع الغطاء الخارجي الحساس

وقد لاحظ بعض العلماء في القرن الماضي بعد حصيلة من التجارب في المحطة الفضائية السوفياتية سيوز، أن الخلايا الحساسة التي توجد برأس الجذع (Coiffe) هي التي توجّه جواب الجذوع لتأثير الجاذبية، خاصة بعد مقارنة بين تموضع الجذوع تحت تأثير الجاذبية وأخرى تحت ظروف ننعدام الجاذبية، فتبين أن هناك ترسب عضويات (Amylo-plastes) كبيرة في الخلايا الحساسة بفعل الجاذبية، وتبين أن النمو الجذري يكون أضعف في حال انعدام الجاذبية. وهذه النظرية تبين التأثر بالجاذبية من خلال تغير في قدرة التوجه، ونقل هذه المعلومات إلى منطقة يتم فيها الانحناء الجذري. ويتم ذلك عبر عدة مراحل، أولها إدراك الجذر لتغير اتجاه الجاذبية، ثم ترجمة الإشارة، أي تحويل الفعل الآلي إلى إنتاج وتوزيع كيميائي حيوي. وهنا يكون المزج المعجز بين نظامين متباعدين، الأول فيزيائي وهي الجاذبية، والثاني كميائي وهي مواد تفرز في النبات. وتنتقل الإشارة القادمة من رأس الجذر، حيث يتم الإدراك والترجمة إلى موقع التأثر الذي يبعد بمليمترين عن الرأس، ثم ينشأ الانحناء الجاذبي في نمو الأجزاء العليا (الصورة رقم٢) والدنيا (الصورة رقم٣) من الجذور، حيث يمكن ملاحظة طول الخلايا في المواضع القريبة من الرأس بواسطة المجهر.

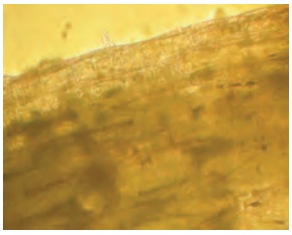

الصورة رقم٣
خلايا سفلية جذرية
غير ممددة لجذور نبات الجلبان.

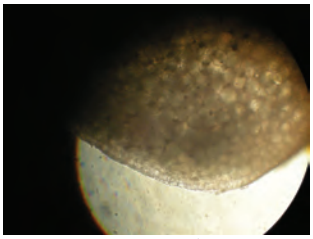

الصورة رقم٢
خلايا علوية جذرية
متمددة لجذور نبات الجلبان.

وقد أثبتت بعض التجارب أن الانحناء الجاذبي يَنشطُ بانتقال كابح للنمو من رأس الجذر باتجاه منطقة الاستطالة والنمو. في هاته الحالة تكون العضويات الجاذبة -واسمها أميلوبلاست- متموضعة قرب الجدار الخلوي الأبعد عن النسيج الإنشائي في مؤخرة رأس الجذر (Coiffe) . وهكذا يفترض وجود ضغط على بنية حساسة على الجدار الطولي لخلايا مسؤولة عن تمثل الانحناء الجاذبي.

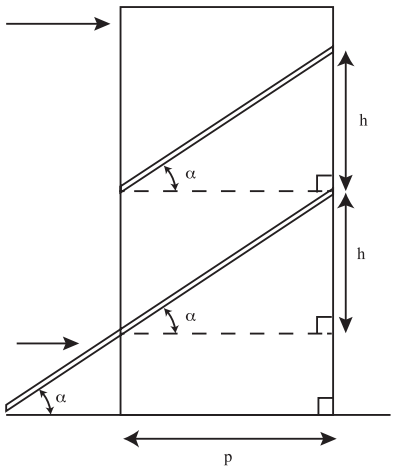

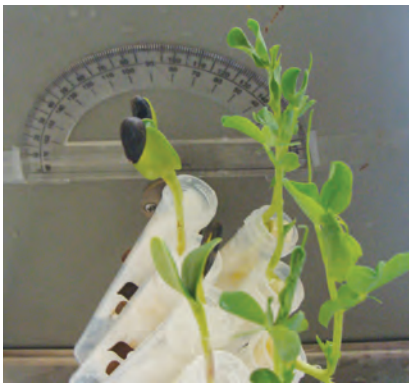

عملية الإنبات بزاوية ميل α =٦٠ درجة.

الصورة رقم٤: قوة الانحناء وتصحيح القوة الجاذبية.

وتُبين الدراسات أن هناك آلية تحد من انحناء الجذور على الأرض، في حين أنها تتوقف عن العمل مع انعدام الجاذبية. وهذا يفترض أن درجة انحناء الجذور، هي نتيجة قوتين متعارضتين ومتتاليتين؛ إحداهما تحرض رد فعل الانحناء الجاذبي، والأخرى تعدمه. (الصورة رقم٤)

أكد البحث أن هناك علاقة بين الجاذبية الأرضية والنباتات، يجعل لديها القدرة على الانتصاب في حالة ميلها بسبب الرياح والحوادث الأرضية الأخرى، حيث إن لديها تقبّلاً ذاتيًا بالوضع والحركات والتوازن.

الصورة رقم٥: الجذع في اتجاه الجاذبية.

وقد أجريت تجارب مع فريق من الطلبة بجامعة محمد الأول، كلية العلوم، وجدة، المغرب، على عدة أنواع من النباتات؛ منها العدس، وعباد الشمس، والجلبان، فتبيّن من الحسابات أن النبات لديه الإحساس بالميل والانحناء، مما يجعله يرجع إلى الشكل والوضع الطبيعي مرة أخرى، وأن ذلك يمر من خلال الخلايا الموجودة في الكوع الخارجي للساق الذي يقوم بتصحيح وضعه، وفي حالة وجود ضعف في هذه الخلايا، يكون من الصعب على النبات الانتصاب مرة أخرى. وما زالت الأبحاث مستمرة لمعرفة المزيد من المعلومات.

عند وضع نبتة في وضع أفقي، يتجه الساق إلى أعلى والجذر إلى أسفل (الصورة رقم٥). وتسمى عملية اتجاه الجذر إلى أسفل بـ"الانتحاء الأرضي" الذي يظهر حالما تبدأ عملية إنبات البذور. ويعود ذلك إلى وجود زيادة في تركيز الأكسين عند ذلك الطرف، ويمنع التركيز العالي للأكسين في الجانب الآخر المواجه للأول، مما يعطي استطالة الخلايا في الجذور، ويبطء النمو عند ذلك الجانب، ويزداد انقسام الخلايا على الجانب العلوي، مما يسبب انحناء النهائي للجذر.

الصورة رقم٦: أطوار تصحيح أثر الجاذبية عند الجذع. من ١ إلى ٤.

الصورة رقم٧: وضع نبتة الجلبان أفقيًا باتجاه الساق إلى الأعلى.

الاستجابة لعامل الجاذبية

دلّت بعض التجارب أن الجذور جدُّ حساسة للجاذبية، وهي تؤثر على خلايا الرأس الموجودة في قمة الجُذيْر، بواسطة حبوب نشوية تتجمع ويسبب وزنها في أسفل الخلية بتصحيح وضعها وإدراك الوضع الطبيعي الذي ذكر في الآية الكريمة؛ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، وتنمو في الاتجاه الصحيح نحو الأسفل في داخل الأرض.

تفرز جميع النباتات بعض المواد التي تنشّط نموَّها، ومن بينها الأوكسين (Acetic Indolyl Acid) وهي هرمونات نمو النباتات. فهي تؤثر في بعض أقسام النبتة، وتسبب الجاذبية تركيز الأوكسين فيها كما كانت الحال سابقًا في حبوب النشا. وتحتوي خلايا الساق الحديث العهد والتي تقع في الأسفل، على كمية أكبر من الأوكسين. فهي تنمو إذًا وتتكاثر بسرعة أكثر، ويكون رأس النبتة متجهًا نحو الأعلى. فالخلايا القريبة من الرأس، هي التي تحتوي على نسب مئوية مرتفعة جدًّا من الأوكسينات، وعندما تتواجد الأوكسينات بكثرة، تفقد فعاليتها ولا تعود تنشط النمو والتكاثر. وبالمقابل، تحتوي الخلايا الواقعة بعيدًا عن رأس الجذور كميات أقل من الاوكسينات، إلا أنها كافية لتوجيه الجذر نحو الأسفل.

استشعار الجاذبية يكمن عند النباتات في انحناء الجذور في اتجاه الأرض، وهذا بزاوية ميل مصححة بطريقة رياضية، تستعمل فيها النبتة عمليات حسابية معقدة لتبيان مكامن

الخطأ الجاذبي وبالتالي تصحيحه. عندما نقوم بعمليات قِطَع أفقية لنسيج جذور وضعت في وسط اصطناعي أفقي (الأرض)، ونقارنها بجذور نباتات وضعت عموديًّا على الطريقة العادية، نجد فرقًا شاسعًا بين موضع بعض العضيات والجزيئات داخل السيتوبلازما عند الخلايا الجذرية للنباتات التي وضعت أفقيًّا، أي بدون جاذبية. (الصور رقم٢ و٣)

خلايا الجهة العلوية لجذور نباتات أفقية تنمو بطريقة سريعة مقارنةً مع نفس الخلايا السفلية، مما يعطي فرقًا شاسعًا بين النمو العلوي والسفلي، والنتيجة هي الميل إلى الأسفل في اتجاه الجاذبية الأرضية. من بين العوامل الكيميائية المصاحبة لتصحيح زاوية الميل عند النباتات بعد الاستشعار الجاذبي، يمكن أن نستدرج هرمون الأكسين، وهو الهرمون المسؤول كليًّا عن تكوين الجذور، وحتى طريقة الاتجاه نحو الأرض بالنسبة للجذور والاتجاه نحو السماء بالنسبة للجذوع، مما يمكن استحضاره من الآية القرآنية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(إبراهيم:٢٤).

هذا الهرمون هو المسؤول أيضًا عن النمو وتمدد الخلايا النباتية، وهذا عبر ثلاثة مراحل؛ هي التمدد فدخول الماء ثم النمو. هذه المراحل تتم بالتتابع، ولها خاصية أنها بدون رجعة. الرسم أسفله يبين هذه المراحل.

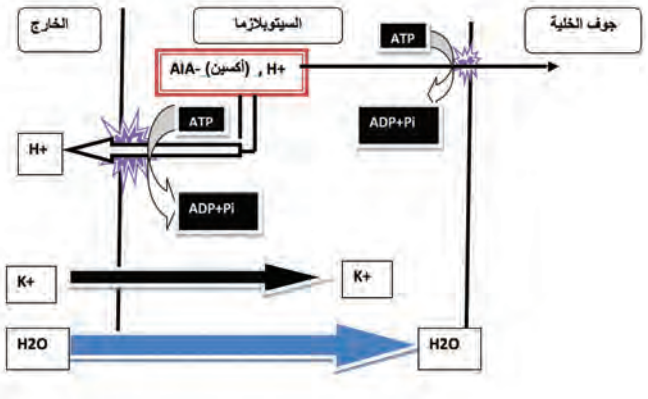

هذا الفرق في تركيز الأكسين بين الجهتين، مسؤول عن تمدد الخلايا العلوية بسرعة نمو كبيرة مقارنة للخلايا السفلية (Differential Growth) لتكوّن استجابة الخلايا للتعديل الجاذبي.

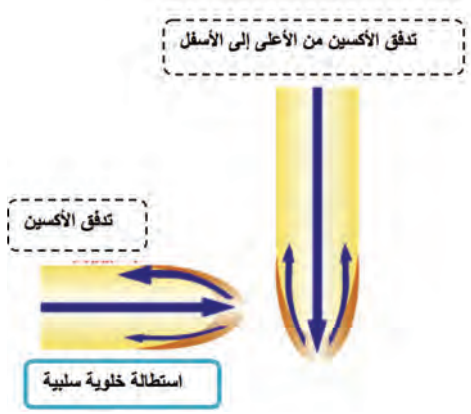

إن وجود استجابة الجاذبية عند النباتات، والتي تتطابق مع النمو الموجهة في بعض الأعضاء في اتجاه قوة الجاذبية، يفترض أن هناك نظامًا أو أنظمة يمكن أن تتجاوب بشكل فوري مع الجاذبية داخل النبات.

يبدو أن هناك ضغطًا كبيرًا بواسطة البروتوبلازما، وهو غير متساوٍ في جميع مناطق الخلية الحساسة. هذه الخاصية تجعل مجال الإدراك عند الجذور، قابلاً لإعطاء إشارة التصحيح، وتكون هذه الخاصية آلية أخرى للإدراك أقلّ أهمية من الترسيب المرتبطة بجزيئات النشا.

وجود الجاذبية أمر أساسي لبقاء الأصناف خلال الإنبات، والجاذبية تُقدِّم باستمرار عاملاً بيئيًّا، يبدو أن العديد من العمليات اكتُسبت أثناء التطور، مما أدى إلى وجود عدة نظم داخل الخلية نفسها. ■

عملية الإنبات عمودية وعادية.

عملية الإنبات عمودية عكس الجاذبية.

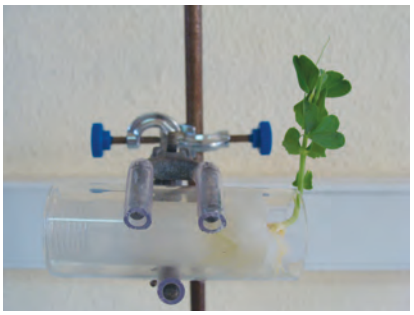

عملية إنبات أفقية ومائلة بزاوية ٣٠ درجة.

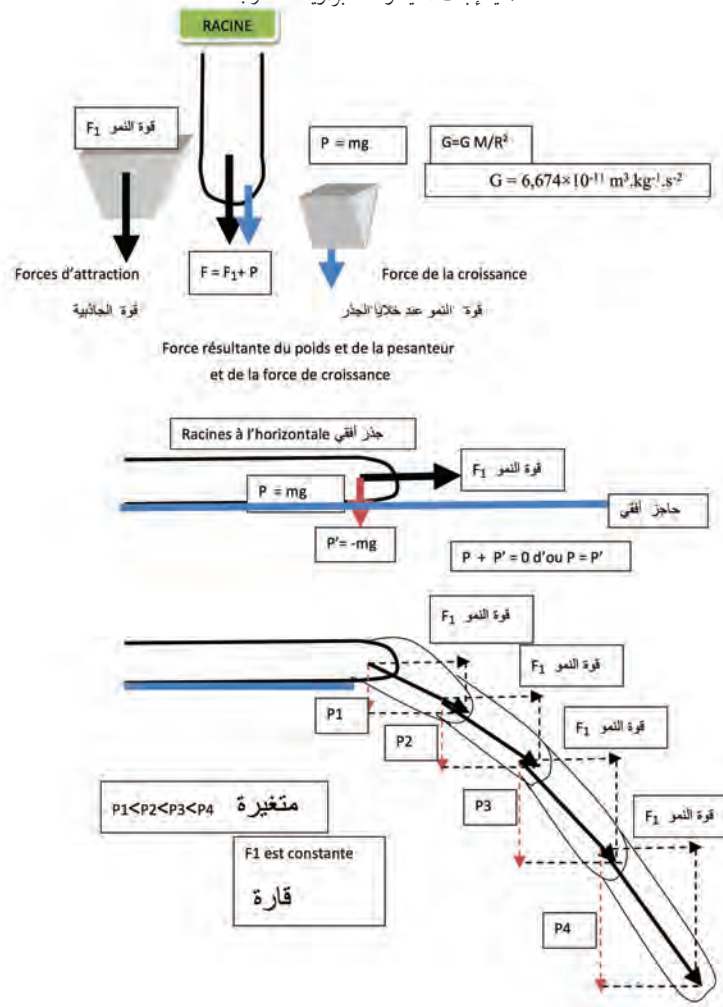

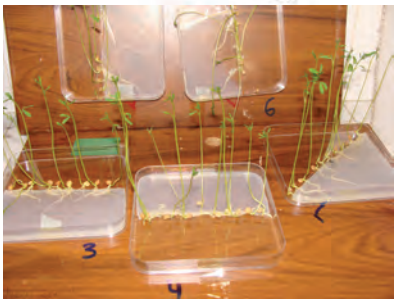

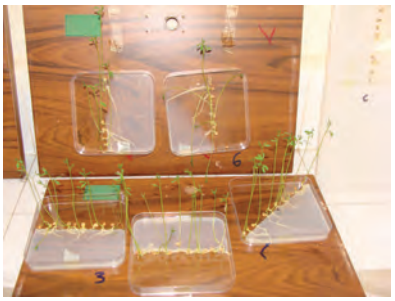

عملية إنبات عدس في وسط اصطناعي عمودي وأفقي ومائل.

(*) جامعة محمد الأول، كلية العلوم - وجدة / المغرب. تم إعداد هذا البحث من قبل أ.د. عبد المجيد بلعابد، والطلبة: بوشفرة حنان، والجوهري يزيد، ومالكي حورية.

أ.د. بركات محمد مراد*

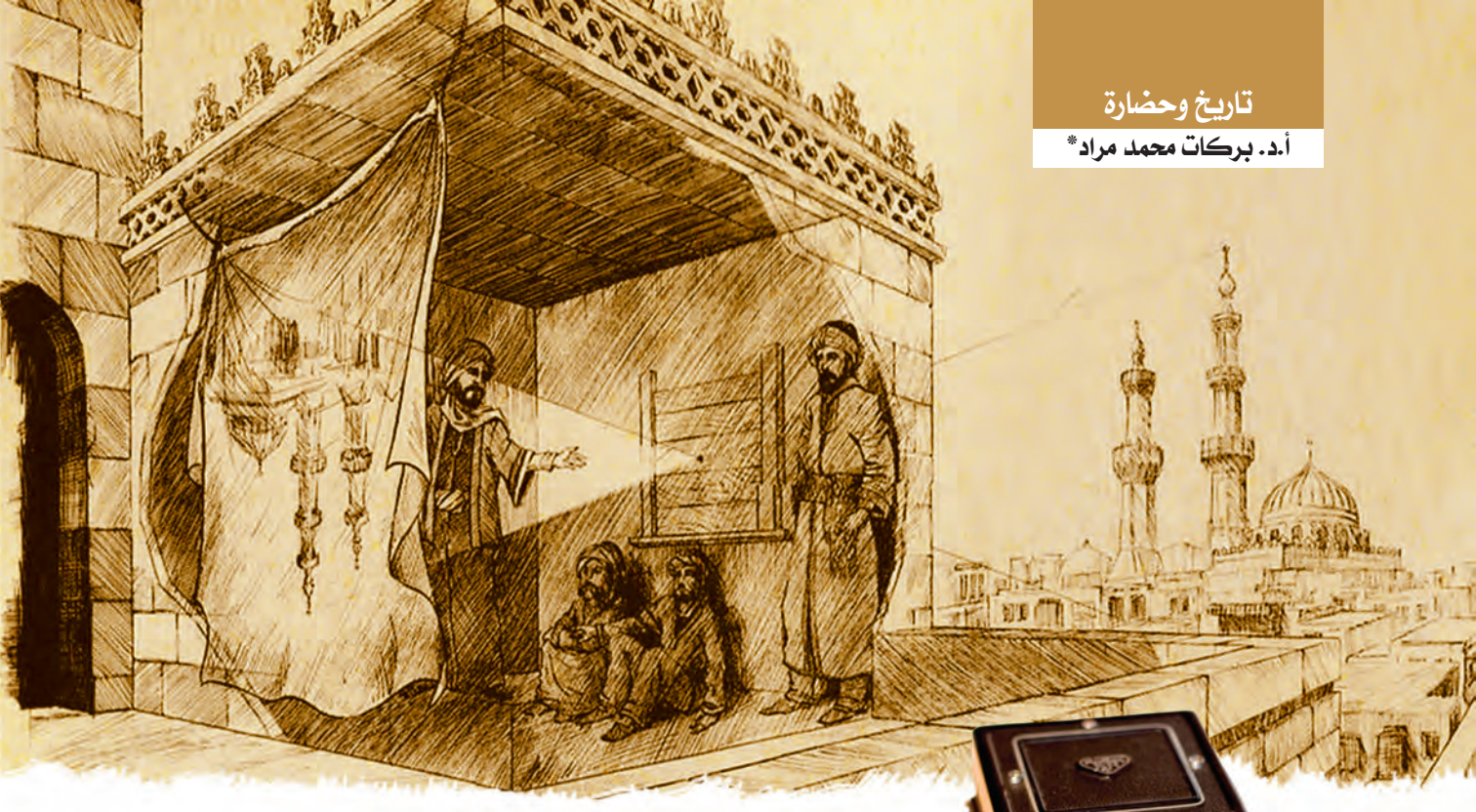

ابن الهيثم

مؤسس علم الطبيعة في العصور الوسطى

عرفته أوربا باسم "Alhazen"، أي الحسن بن الهيثم الذي دخل في خدمة الخليفة الفاطمي "بأمر الله"، وعرف بالزهد والبعد عن شرف الدنيا وجاهها، حتى إن الخليفة ولّاه بعض الدواوين، فضاق بها ذرعًا ولم يحتمل فتنة الحكم وفتنة الحاكم، وآثر عليها حياة العزلة وكفاف العيش والتجرد عن الشواغل التي تمنعه من النظر في العلم والانكباب على تحصيله وتحقيقه.

وقد وصفه "البيهقي" بـ"الحكيم بطليموس الثاني"، ويقول "ابن أبي أصيبعة": "كان متفنّنًا في العلوم، ولم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه".

أما المحدَثون فنجد على رأسهم "دي بور" في كتابه "تاريخ الفلسفة في الإسلام" يقول: "وتجد في القاهرة في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي رجلاً من أعظم الرياضيين والطبيعيين في العصور الوسطى، هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم". ويصفه "سارتون" بأنه: "أكبر عالم طبيعي مسلم ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر في جميع الأزمان".

وتأتي عظمة ابن الهيثم من إدراكه للطريقة المُثلى في البحث العلمي. فقد امتازت بحوثه بالملاحظة والتجربة، وأخَذ بالاستقراء والقياس والتمثيل. ورائدُه في ذلك منهج الأصوليين الذي كان قد نضج قبله. فقد كان يبتدئ -كما يقول هو نفسه- باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المُبصَرات، وتمييز خواص الجزئيات، ثم يترقّى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب، مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج. وكان يجعل غرضه في كل

ذلـك اسـتعمال العدل لا اتبـاع الهوى، ويتحرى في سـائر ما يميـزه وينتقـده طلبَ الحق الذي بـه يَثلُج الصدرُ، حتى يصل بالتدريـج واللطف إلى الغايـة التي عندها يقـع اليقين، وتظهر الحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم الشبهات.

وُلد ابن الهيثم في العراق بالبصرة عام (٣٥٤هـ/٩٦٥م)، أما وفاته فيقول "القفطي" إنها تقع في حدود عام(٤٣٠هـ/١٠٣٩م). وتنقسـم حياتـه إلى مرحلتيـن، الأولى نشـأته بالبصرة؛ وكان يعمل موظفًا في دواوين الحكومة بالعراق. ثم المرحلة الثانية وهي قدومه إلى مصر في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي.

مؤلفاته

لقـد تـرك لنا ابن الهيثـم تراثًا ضخمًـا مليئًا بالابتـكار، زاخرًا بالموضوعـات الجديـدة والبحـوث الفريـدة. فهـو لم يكتف بالنقل عن كتب القدماء، بل لقد نظر فيها نظرًا جديدًا لم يسبقه إليـه أحد من قبـل، واتجه في هذا النظر وجهـة جديدة أيضًا، فأصلح الخطأ وأتم النقص وابتكر المستحدث من الأبحاث، وأضـاف الجديـد من الكشـوف، وسـبق فـي غير عـدد قليل مـن الحـالات الأجيالَ والعصورَ، واسـتوفى البحـث إجمالاً وتفصيـلاً، حتـى لقد كانـت مؤلفاته عمدة العلمـاء في أوربا، ومنهلاً ينهلون منه حتى عهد قريب. وفي مجال التأليف تميز ابن الهيثم، حيث كان غزيرًا في كتاباته ورسائله ومؤلفاته؛ فقد كان نادرة عصره فـي علمه وذكائه. وتصانيفُه تقارب المائتين مـن المصنفـات أو تزيـد بيـن مطـول ومختصر ورسـالة في المجـال العلمي بفروعه المختلفة، أو الفلسـفي بتعدد مناحيه وتجلياتـه. ولا أدلّ علـى ذلك من أن علم البصريات تَكثُر فيه مؤلفاتـه، مثل كتابه "المناظر"، ورسـالته فـي الضوء، ومقالاته فـي المرايا المُحرِقة بالقطوع، أو المُحرِقة بالدائرة، أو مقالاته فـي ضوء القمـر... وفي مجال الرياضيـات تصل مؤلفاته إلى أكثـر من خمسـين مؤلفًا ما بين كتاب ورسـالة ومقالة، تتوزع علـى الأبحاث الرياضية البحتة، وعلوم الحسـاب والهندسـة والجبر... وأيضًا تعليقات لمؤلفات السابقين عليه من اليونان مثل كتابه في "حل شكوك أقليدس" الذي يصفه الدكتور "علي مشـرفة" بقولـه: "إن المطّلـع على كتاب ابـن الهيثم في "حل شكوك أقليدس"، يلمس دقته في التفكير وتعمقه في البحث، واسـتقلاله فـي الحكم، كمـا يتّضح له صحة مكانة الهندسـة الأقليدية من العلوم الرياضية؛ فهو كتاب رياضي بأدق ما يدل عليه الوصف من معنى".

وهـذا يعـود في رأي بعض العلماء إلـى أن ابن الهيثم، قد سـلك في أبحاثه الرياضية الواضحة، وفي مؤلفاته بصفة عامة فـي باقي العلوم، وفي علم الرياضيات بصفة خاصة، طُرقًا لم يسلكها المتقدمون، وأساليب جديدة كل الجدّة في البراهين، مما يدل على استقلال تفكيره وبعد نظره وقوة إبداعه.

كما ألّف ابن الهيثم كثيرًا من الرسائل والمقالات في علم الفلـك والـذي كان يُعد علمًا من العلـوم الرياضية، تَرْبُو على أربعة وعشـرين مؤلفًـا، فُقِد بعضها ووصل إلينـا منها حوالي عشـرين مقالـة مثل ارتفـاع القطـب، ومقالة في هيئـة العالم، وارتفاعات الكواكب، وحركة القمر، وأبعاد الأجرام السماوية، وصـورة الكسـوف، وتصحيـح الأعمـال النجوميـة... إلخ.

وعلـى الرغم من أنه لم يمارس مهنـة الطب، إلا أنه اهتم بالتأليـف فـي هـذا المجال. ولقـد كان متأثـرًا إلى حـدٍّ كبير بـ"جالينـوس" وكتبه ومؤلفاتـه الطبية. فوضـع لنا مؤلفات تَرْبُو على العشـرين رسـالة مثل تقويم الصناعة الطبية، وكتاب آراء أبقـراط وأفلاطـون، وكتاب في العلل والأعـراض، وأصناف الحِميـات، والبحران، وقوى الأدويـة المُفردة، وقوى الأدوية المركّبـة، وفي حفـظ الصحة... إلخ. هذا فضـلاً عن مؤلفاته في المجال الفلسـفي؛ حيث كتب مؤلفات عميقة في الفلسفة والمنطـق، وعلـم النفس، والأخـلاق، والإلهيـات تربو على أربعين مؤلفًا، أشهرها رسالة "المكان" ومقالة "ثمرة الحكمة".

كتاب "المناظر" وتأسيس علم البصريات

وقـد وضـع ابن الهيثم كتابـه "المناظر" الذي يُعـدّ أهم كتاب ظهـر فـي القرون الوسـطى كلهـا، وأكثرهـا اسـتيفاءً لبحوث الضـوء. فقـد عالـج فـي هـذا الكتـاب، القوانيـن الأساسـية للانعكاس والانكسار أو الانعطاف، كما سبق "كبلر" إلى كثير مـن قضايـاه. حتى ليقـول البعض إن هذا الأخير إنما اسـتمد معلوماته في الضوء -ولا سـيما ما يتعلق بانكساره في الجو- مـن هـذا الكتاب وسـائر كتبـه الأخـرى. فابن الهيثـم هو في مقدمة علماء الطبيعة النظرية بما وضـع في ظواهر الضوء من نظريات في الإبصار وقوس قزح وانعكاس الضوء وانكساره. وهـو يأتـي أيضًا في المقدمة من علمـاء الطبيعة التجريبية بما أجرى من تجارب في كيفية امتداد الأضواء الذاتية التي تنطلق من الجرم المضيء؛ كضوء الشـمس، والأضواء العرضية التي تنعكـس عن سـطوح الأجسـام الكثيفة بعـد أن كانت أضواء ذاتية أو عرضية.

وقـد تناولت تجاربه أيضًا، ضوء القمر، وضوء الكواكب، والضـوء المنبعـث من ضـوء أبيض يسـتضيء بضـوء القمر، واسـتقصى أحوال الإضاءة الشديدة والإضاءة الضعيفة. وهو أخيرًا في مقدمة علماء الطبيعة التطبيقية، بما أجرى من تجارب وأوجـد من أجهـزة. ولقد عـرض الأسـتاذ "مصطفي نظيف" في كتابه "الحسـن ابن الهيثم" لنظريات الإبصار في الفلسـفة اليونانيـة، من فيثاغورس إلى أمبيدوقليس، ومن أفلاطون إلى أرسـطو وأبيقور، فلم يجد سوى آراء مُفكَّكة متناثرة، لا تقوم علـى أسـاس علمي، ثـم عرض للنظريـات التـي ظهرت في العصر الهلينسـتي الإسـكندري، من أقليدس وبطليموس إلى هيـرون وثاون، فوجد أبحاثًا علمية رصينة قائمة على أسـاسٍ منهجي. كما عرض آراء الإسـلاميين الذين سـبقوا ابن الهيثم كالكندي، والرازي، وقسطا بن لوقا، فانتهى إلى هذه النتيجة؛ وهي أنه ليس معروفًا الآن أن أحدًا من الإسلاميين المتقدمين علـى ابـن الهيثم، قد أضافـوا إلى علم الضوء شـيئًا ذا بال لم يكن معروفًا من قبل.

ثـم عرض الأسـتاذ "نظيـف" آراء ابن الهيثم فـي الضوء، وقارنها بالآراء السـائدة في عصره. فشـرح آراءه في الأضواء الذاتيـة والعرضية والمُنعطفـة، أي "المُنكسـرة" (Refraction)، والفجر والشـفق والتقازيح، أي امتزاج الضوء بالظلمة بنسب مختلفـة، والألـوان والخـداع البصـري والهالـة وقـوس قزح والكسوف والخسوف وما إلى ذلك.

لقـد كانت أصـول الميكانيكا مبعثرة كذلـك قبل "نيوتن"، إلـى أن جاء هـذا الأخير فأدرك حقائقهـا وأضاف إليها وربط بينها، حتى أضحت على يديه وحدة شاملة هي التي قام عليها علم الميكانيكا. وكذلك علم الضوء، فإنه حتى الفكرة البسيطة مـن أن للضـوء وجودًا في ذاتـه، لم تكن من الأمور المُسـلَّم بهـا. فإن أقليدس وبطليمـوس وغيرهما من أصحاب التعاليم ممن سبقوا ابن الهيثم، على اختلاف طبقاتهم وتباعد أزمانهم وتفـرق آرائهـم، متفقون علـى أن الإبصار إنما يكون بشـعاع يخـرج مـن البصر إلـى المُبْصَر، وعلى أن الشـعاع يمتد على سـموت خطوط مسـتقيمة أطرافها مجتمعة عند مركز البصر، وعلى أن الشعاع يُدرَك به مُبْصَر من المُبْصَرات، فشكل جملته شكل مخروط رأسه مركز البصر، وقاعدته سطح البصر. ولَمَّا كان ذلك كذلك، فقد رأى ابن الهيثم أن يصرف الاهتمام إلى هذا المعنى ويضـع كتابه "المناظر". وإذن فإن الأسـاس الذي كان يقوم عليه علم الضوء القديم، أسـاس خاطئ يجب على ابن الهيثم أن يعيد النظر فيه ويقلِبه رأسًا على عقب.

والجديد الذي يقدمه ابن الهيثم، يتضح من ذلك الموقف النقدي الذي يتخذه من كل العلماء والفلاسـفة السـابقين في تأسيسـه لهذا العلم، وتقديمه لرؤيته الجديدة؛ فهو ينقد نظرية أرسـطو والأبيقوريين وغيرهما من الفلاسفة الطبيعيين، الذين اختلفـوا فيمـا بينهم في كيفية ورود الصـورة إلى العين. وهي نظرية "الإرسـال الداخلي" (Intromission)، أي دخول شـيء ما إلـى العين والـذي يمثل الشـيء المرئي، ونظريـة "الإصدار" (Emission)، والإبصـار فيهـا يكـون بخروج شـعاع مـن البصر إلـى المُبْصَر، والتي يمثلها أفلاطـون والرواقيون، ثم أقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسـفة وأصحاب التعاليم. ويأخذ فـي كتابـه "المناظـر" بتوضيـح كل هـذه الآراء المتعارضـة والمتناقضة، ويأخذ في نقدها عن طريق التحليل والتفنيد مع الالتـزام بالموضوعيـة التـي تتحقق إلى حـدٍّ كبير في تجارب يقـوم بإجرائهـا لتأكيـد رؤيتـه الجديـدة، مسـتخدمًا معارفـه الرياضيـة ومعلوماتـه الطبيعية في مزاوجة مـا بين الرياضيات والطبيعيات في منهجية علمية جديدة.

إن أعظـم مآثر ابـن الهيثم أنه أبطل علـم المناظر القديم، وأنشأ علم الضوء بالمعنى الحديث. وإذا كانت دائرة المعارف البريطانية تقول إنه بعد بطليموس لم يظهر من يجاريه في علم الضـوء إلا ابن الهيثم، فإن بحوثه ودراسـاته ومقالاته ليسـت مجرّد زيادة كمية اتسـعت بها ثروتنا العلمية، وإنما هي -قبل ذلك- تحوّل كيفي في المفاهيم والأسس، أو قُلْ هي أحداث قلَبـتْ أوضـاع هذا العلـم وصححت مجـراه، ودفعت به في الطريق السليم، وأقامته علمًا ثابت الأركان راسخ البناء.

شروط الإبصار

وبعـد أن يحـدد ابن الهيثـم كيفية البحث في علـم البصريات في كتابه "المناظر"، يسـتأنف البحث عن الشـروط التي يجب توافرها عند الإبصار، وهي التي يسـميها "المعاني التي لا يتم الإبصار إلا بها".

فقد أوضح أن الضوء له وجود مستقل في ذاته، ولابد من أن يكـون بينـه وبين العيـن بُعد، وأن يكون بيـن كل نقطة من سـطح البصر وبين العين خط مستقيم غير مقطـع بكثيف، أي أن يكون الجسـم المتوسـط بين سـطح البصر وبين المُبْصَر، وهو ما يطلق عليه الدكتور مصطفي نظيف "الوسط".

والجديد الذي أضافه ابن الهيثم لعلم البصريات أيضًا، أنه استدل على أن العلّة الأساسية في الإبصار، هي وجود المُبْصَر مع توافر هذه الشروط، يقول: "إن البصر إذا أحس بالمُبْصَر بعد أن كان لا يحس به، فقد حدث منه شيء ما بعد إن لم يكن، وليس يحدث شيء بعد إن لم يكن إلا لعلة، ونجد المُبْصَر إذا قابل البصر، أحس به البصر، وإذا أزال عن مقابلة البصر، لم يحس به البصر، وإذا عاد المُبْصَر إلى مقابلة البصر، عاد الإحساس. وكذلك نجد البصر إذا أحس بالمُبْصَر ثم أطبق أجفانه، بَطُلَ ذلك الإحساس، وإذا فتح أجفانه، بَطُلَ ذلك الإحساس، وإذا فتح أجفانه والمُبْصَر مقابله، عاد ذلك الإحساس. والعلة هي التي إذا بَطُلَتْ بَطُلَ المعلول، وإذا عادت عاد المعلول. فالعلة إذن، التي تُحدث ذلك الشيء في البصر، هو المُبْصَر".

ثم يقدّم ابن الهيثم مزيدًا من الشرح والتحليل لنظريته في الإبصار، والتي تتفق تمامًا مع الرؤية العلمية الصحيحة والحديثة لكيفية الإبصار الآن. هذا وقد استعان ابن الهيثم بالجبر والمثلثات والهندسة بنوعيها في حل كثير من معضلات الضوء، ووضع كل ذلك في عبارات وصيَغ لا تعقيد فيها ولا إبهام. وبفضل تجاربه في انعكاسات الضوء من خلال وسط شفاف كالماء والهواء، ومن خلال أجسام كروية كالآنية الزجاجية، ودراسته للعلاقة المطّردة بين تكبير الأحجام والتقاء الضوء في المرايا المُحرِقة، فقد وصل -أو كاد- إلى اكتشاف نظرية العدسات المُكَبِّرة التي لم يكن ليفصله عنها سوى خطوة واحدة، والتي صُنعت بإيطاليا بعده بثلاثة قرون.

وقد اعتمد "روجر بيكون" وكل كتّاب البصريات في العصر الوسيط في الغرب على أعمال ابن الهيثم في البصريات، كما أثّرت أعماله أيضًا تأثيرًا واضحًا في ليوناردو دافنشي، وفي يوحنا كبلر. ولذلك تقول المستشرقة هونكة: "إن دراسات ابن الهيثم لنظرية انعكاس الضوء، والعدسات والمُعضلة المعروفة باسمه (مُعضلة ابن الهيثم)، وكذلك وصفه الدقيق للعين، كل ذلك جعل ابن الهيثم جديرًا أن يُقرَن اسمه باسم العالمين "روجر بيكون" و"وتيلو". وما تذهب إليه المستشرقة، يطابق الحقيقة؛ فإننا نجد في كتاب "المناظر" وصفًا للعين وإدراكًا للرؤية أدق كثيرًا، وأكثر تحديدًا من جميع من تقدموه. ونجد فحصًا لظاهرة الانكسار الجوي، ومحاولات لتفسير الرؤية المزدوجة (بالعينين)، وأول استعمال عُرِف للغرفة المظلمة.

بعض إنجازاته العلمية

كان ابن الهيثم -في كتابه "في طبيعة إلقاء الظل"- أول من أجرى تجارب بواسطة نوع من "آلة الثقب" التي هي -في الواقع- صورة أولى لآلة التصوير فيما بعد، والتي برهنت له تمدد أشعة الضوء بخط مستقيم. كما أنه لم يصدّق عينيه حين رأى صورة العالم مقلوبة رأسًا على عقب لدى انعكاسها -ولقد لجأ إلى نفس التجارب التي لجأ إليها فيما بعدُ ليوناردو دافنشي- واكتشف تعليلاً لكثافة مختلف الطبقات كالماء والهواء، واختلاف مدى انكسار الضوء في كل منها، ثم حسب -بالاستناد إلى ما سبق- علوّ الطبقة الهوائية المحيطة بالأرض وهي خمسة عشر كيلومترًا، وهكذا يكون خرج بنتيجة غاية في الدقة والصحة لم يسبق إليها أحد من قبل. ثم اهتم بتحليل ظهور الهلال، والغسق وقوس قزح، التي عجز عن شرحها علميًّا الفيلسوف أرسطو ذاته. وتوسع فيما بعد بأبحاثه فشمل اهتمامه الآلات البصرية. فدرس وحسب درجة الانعكاس في المرايا المستديرة والمرايا المُحرِقة بالدوائر (Kegels Chnittbrennspieigel)، وتوصل إلى معرفة قانون تأثير "العاكسات الضوئية" (Progecteurs). ثم حقق في تأثير التقاء الأشعة وتكبير الأحجام، ليس بواسطة المرآة المُحرقة فقط، بل "الزجاجة المُكبِّرة" (Lupe)، واخترع أيضًا أول نظارات للقراءة. ومن هنا تقول المستشرقة هونكة إنه "عندما قام يوهانس كبلر في ألمانيا خلال القرن السادس عشر، ببحث القوانين التي تمكّن غاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢م) بالاستناد إليها من رؤية نجوم مجهولة من خلال منظار كبير، كان ظل ابن الهيثم الكبير يجثم خلفه". وما تزال حتى يومنا هذا، المسألة الفيزيائية الرياضية الصعبة، التي حلها أبو الحسن بن الهيثم بواسطة معادلة من الدرجة الرابعة، مُبرهنًا بهذا عن تضلّعه البالغ من علم الجبر. نقول، ما تزال المسألة القائمة على حساب نقطة التقاء الصورة التي تعكسها المرآة المُحرقة بالدوائر على مسافة منها، ما تزال تسمى "بالمسألة الهيثمية"، نسبة إلى ابن الهيثم نفسه. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

أ.د. أحمد عبادي*

المدنية ليست ثراءً خادعًا، ومظاهر فاتنة، وإشباعًا للنزوات، وانغماسًا في الشهوات.. إنما هي غنى في النفس، وسمو في الروح، وعمق في النظر، واعتراف بحق العيش الكريم للآخرين.

(الموازين)

* * *

المسلمون وحقوق الإنسان-٣

قراءة في آليات التعاطي

حيث إن جلَّ المصالح التي تقوم عليها حياة الأمم وارتفاقاتها -وفي لبّ ذلك ضمان حقوق الخلق- تحتاج إلى اجتهاداتٍ مستأنفةً في كل حين قصد تَبيُّنِها، ومَقْدَرَتها، وتقعيدها، وتقنينها، من أجل تنزيلٍ مُتَّزِنٍ لها على أرض الواقع، كان لابد من آليات تمكّن من جلب هذه المصالح، ودرء ما يهددها من مفاسد في سياقاتها المختلفة، نظرًا في المعتبر من هذه المصالح، واعتبارًا للمآلات، وتحقيقًا للمناطات، وتنقيحًا لها، وأخذًا بمبدأ سد الذرائع وفتحها على السواء، واعتبارًا لأصل الاستحسان، والموازنة الدقيقة بين المصالح والمفاسد، جلبًا للأُولى إن رجحت، ودفعًا للثانية إن غلبت، تسديدًا وتقريبًا وتغليبًا. ومن آكد هذه الآليات:

١- إعمال أصل المصلحة المعتبرة

مقاصد الشريعة[١] على اختلاف أقسامها ووسائل إثباتها ومستوياتها، تتركز في مقصد كلّي جامع جرى التعبير عنه تارة بـ"جلب المصالح ودرء المفاسد"، وتارة بـ"تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها"[٢].

من أبرز ميزات الفكر المقاصدي، كونه فكرًا كليًّا يأبى

الانحسار في ظواهر الأدلة الجزئية، دون وصلها مع الأدلة الكلية. من هنا كانت حقوق الإنسان مقصدًا أساسيًّا من مقاصد التشريع الإسلامي، لارتكازها على مبادئ كلية من قبيل التكريم، والاستخلاف، والمساواة، والعدل، والحرية، والكرامة لهذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، مع الالتزام بالسبل والوسائل التي تحقق هذه المقاصد، وتحافظ عليها وتمنع من إهدارها أو ضياعها. وإذ إن مصلحة ضمان حقوق الإنسان، من أعظم المصالح، فلا خلاف يمكن أن يثور حول محورية هذا المقصد في توجيه الأحكام والاجتهاد.

٢- إعمال أصل سد الذرائع

"أصل سد الذرائع"[٣] وجه آخر من وجوه رعاية مقصود الشارع في حفظ حقوق الإنسان ورعايتها، هذا بالإضافة إلى أصول أخرى وقواعد تميز بها المذهب المالكي، وكانت السبب المباشر في ولوع علمائه بالمقاصد[٤].

٣- إعمال أصل"فتح الذرائع"

بما أن المراد بالذريعة؛ ما يتوصل به إلى مفسدة فتكون ممنوعة، أو إلى مصلحة فتكون مطلوبة. فإن الذريعة لا يكون المطلوب سدها دائمًا، بل يكون سدها أو فتحها خاضعًا لحكم ما أفضت إليه، وبمعنى آخر، فسدها أو فتحها، منوط بما تفضي إليه من المقاصد والحكم. قال الإمام القرافي: "اعلم أن الذريعة كما يجب سدّها، يجب فتحها، ويكره ويندب ويباح، فإن الذريعة هي الوسيلة، فكما أن وسيلة المحرَّم محرَّمة، فوسيلة الواجب واجبة كالسعي للجمعة والحج"[٥].

وأشار صاحب المراقي[٦] إلى فتح الذرائع بقوله:

سدّ الذرائع إلى المحرّم حتمٌ كفتحِها إلى المُنحتم

وبخصوص ما قررناه في هذه الفقرات من ضرورة فتح الذرائع الجالبة للمصالح، فإننا نجد علماء الأمة قد قرروه في قواعد محكمة، من قبيل قاعدة "ما لا يتم المأمور إلا به"، أو "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" [٧]. فتسد الذرائع دون ما يمنع تحقق مقصد ضمان حقوق الإنسان، وتفتح أمام ما ييسر ذلك ويسهم فيه.

وأصل سد الذرائع أو فتحها، يحيلنا على أصل ثانٍ مكمّل هو أصل اعتبار المآل[٨].

٤- إعمال أصل اعتبار المآل

اعتبار مآل الأفعال من المقاصد المهمة من الشريعة، قال الشاطبي: "النظر في مآلات الأفعال، معتبر مقصود شرعًا -كانت الأفعال موافقة أو مخالفة- وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام والإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعًا إلى مصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه؛ وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه، أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعًا من إطلاق القول بالمشروعية.

وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية، ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي أو تزيد؛ فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية. وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق، محمود الغب جارٍ على مقصد الشريعة"[٩].

والنظر إلى مآل المجتمع الضامن لحقوق إنسانه، كما النظر إلى مآل المجتمع المهدر لها، يفرض تقديم القياسات الضامنة لحقوق الإنسان، وإن خفيت، على القياسات كلها وإن كانت جلية، وهذا يقودنا إلى آلية الاستحسان.

٥- إعمال أصل الاستحسان

بيَّن الإمام الشاطبي بعض معاني الاستحسان الذي هو أخذٌ بالمصلحة عند المالكية قائلاً: "الاستحسان في مذهب مالك: الأخذ بمصلحة جزئية في مقابل دليل كلِّي؛ لأنه يقوم على التيسير ودفع المشقة ورفع الحرج عن الناس.

ومقتضاه: الرجوع إلى تقديم الاستدلال المرسَل على القياس؛ فإن من استحسن لم يرجع إلى مجرد ذوقه وتشهّيه، وإنما رجع إلى ما علم من قصد الشارع في الجملة، في أمثال تلك الأشياء المفروضة[١٠]، كالمسائل التي يقتضي القياس فيها أمرًا، إلا أن ذلك الأمر يؤدي إلى فوت مصلحة من جهة أخرى، أو جلب مفسدة كذلك"[١١].

فآلية إعمال أصل الاستحسان، اعتبارًا لمآل إهدار حقوق الإنسان وضمانها، يمكّن من القيام بترجيحات معتبرة بهذا الخصوص، مما يفتح ذريعة العدالة، ويسدّ ذريعة الظلم.

٦- إعمال فقه الموازنات

قال الشاطبي: "وإنا وجدنا الشارع قاصدًا لمصالح العباد،

والأحكام العادية تدور معها حيث دارت، فترى الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز"[١٢].

ومفاد ذلك، وجوب الموازنة بين الاحتمالات الممكنة في غير المحكم من الأحكام، ترجيحًا وموازنة بين ما تحققه تنزيلاتها في إطار الشرع الحنيف، وبمقاييسه وموازينه، من المصلحة في الظرف الواقعي المعين، ثم اعتماد الاحتمال الذي يرجُح أنه أكثر تحقيقًا للمصلحة بضوابطها الشرعية المبينة في أماكنها، واعتبار ذلك هو الحكم الشرعي في تلك الحالة، وهذا مناط الاجتهاد، فيما مردّ الأحكام فيه إلى النظر.

ومن تداعيات الوعي العميق عند علمائنا بهذه الآليات في النظر، كونهم درجوا على ألا يسقطوا من اعتبارهم الآراء المرجوحة في تراثنا الفقهي، إذ هي ذخيرة اجتماعية قد تمس إليها الحاجة في أوضاع لاحقة مختلفة، فما لم يرجح في واقع عيني مشخص نظرًا لملابسات وسياقات معينة، قد يضحى راجحًا ضمن ملابسات وسياقات أخرى، وفقه إمام دار الهجرة إمامنا مالك -رضي الله عنه- يحضر فيه هذا الوعي العميق بشدة، لانبنائه على قواعد واقعية كعمل أهل المدينة، والاستحسان، والمصلحة المرسلة، وسد الذرائع.

وفقه الموازنات فقه دقيق يقتضي أن يكون المُعمِل له -فردًا كان أم جماعة- ريّانًا من علوم النص وعلوم السياق، وعلى دراية بالعواقب والمآلات، مما ينتج عنه ملكة في الترجيح والتغليب بعد القيام بالتسديد والتقريب، وجليّ أن ذلك من معضدات ضمان حقوق الإنسان في المجتمعات.

الخاتمة

١- رامت هذه الدراسة، الانخراط في العكوف الكوني على معالجة جملة من القضايا والإشكالات ذات العلاقة بتنزيل مختلف أجيال حقوق الإنسان، كما هي متعارف عليها كونيًّا على أرض عالمنا المعولم، في مراعاة لمقتضياته السياقية المختلفة والمتداخلة، وكذا في مراعاة للمستلزمات المعرفية والثقافية والتشريعية.

٢- كما رامت هذه الدراسة، الإسهام في بلورة نظرية "R.M.R" (Reverse Moderate Relativism) في مجال حقوق الإنسان، والتي تعنى بالنظر التعارفي المنفتح، إلى ما يمكن أن تغني به المنظومات التشريعية المختلفة، منظومة حقوق الإنسان الكونية. وقد انكببنا في مقامنا هذا على النظر فيما يمكن أن تغني به المنظومة التشريعية الإسلامية منظومة حقوق الإنسان كما هي متعارف عليها كونيًّا.

ووعيًا بأن حال الفرد المستهدف بضمان حقوقه والاستنهاض للقيام بواجباته -وعلى حد تعبير مارسيل غوشيه- لا يتغير من الخارج فحسب، وإنما من الداخل أيضًا، حيث إن هذا الفرد -في الوقت نفسه- الذي يجد فيه أن تحديده يعاد، سواء تعلق الأمر بحقوقه أم بمصالحه، فإن عناصر علاقته بنفسه تتغير بشكل أساسي، وينقلب إدراكه الداخلي لمكونات شخصيته رأسًا على عقب، وإنها ظاهرة ذات تأثير بالغ يعيد فكرة الذاتية المتعلقة بصورة المواطن المطروحة منذ القرن الثامن عشر إلى بساط البحث[١٣]، مما يستلزم نظرًا مستأنفًا، واجتهادًا متجددًا، بخصوص موقع الفرد، والتشاكس السياسي، والتسويقي الشرس للاستئثار باهتمامه وطاقاته ومقدّراته، ولا شك أن من آكد حقوق الإنسان، الحق في قدر نسبي من التوقير حتى لا تضيع منه أزِمة ذاته فَيَتِيه عنها وعن محيطه.

٣- وقد استحضرت هذه الدراسة ضمنيًّا، كون مكتسب الديمقراطية في عالمنا المعاصر، قد نما في تمظهرات كثيرة له على التصادم مع "المقدس"، مما أصاب الديمقراطية عن طريق العدوى بشيء من "القداسة"! جعلتها تسمو فوق الذاتيات والمكتسبات الشخصية، فاستحثت الإنسان للخروج من حالة "القصور" مما سربل الديمقراطية بـ"وقار" جعل منها "دعوة" وخدمة على حد تعبير غوشيه "شبه كهنوتية"[١٤] ومادة للتفاني غير المشروط، في مفارقة لأن تصبح "المشروع الشامل" الذي يحيط بالوضع البشري بأكمله، مما كان من نتائجه استدعاء الأديان إلى المجال العام، فأعطى الديمقراطية هيئتها الجديدة في منطقتنا وما حولها، مما يُلزم باجتهاد متجدد، يتغيّا تعميق محيط الفعل الحقوقي والسياسي، وحتى الاقتصادي.

وإذ إن تملّك الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمعاهدات المنبثقة منه، أمر ضروري في الالتزام بمقتضياته، فإنه من اللازم تفعيل مقاربة R.M.R، ببرهانية ترفع وهم التناقض مع ثقافتنا المحلية بكل مرتكزاتها، ومن أهمها الدين الإسلامي، وذلك بفتح نوافذ الاجتهاد والتجديد غير المتعارضين روحًا مع الإعلان العالمي، ولا مع فحوى النظم الاعتقادية والتشريعية في العالم والتي جميعها تجعل الإنسان

في مركزيتها ولبابها، وما الإسلام ببدع من هذه النظم.

٤- وقد تبين من البحث أن الشريعة الإسلامية ليست فقط غير متعارضة مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وإنما تكتنز قوة اقتراحية من شأنها، إغناؤه وتزويده بجملة من آليات التفعيل والإجراء، ولا سيما في مجال القرن الوظيفي الممقدر "Dosé" للحق بالواجب، كما تبين أثناء الحديث عن الجيل الثالث من حقوق الإنسان. ولا شك أن هذه المقاربة من شأنها تجاوز الكليشيه المعتاد الذي مفاده، وكما يقول الباحث "Jason Morgan Foster": "إن بعض الثقافات تتلكؤ في قبول الحقوق التي تبنّاها معظم عالمنا باعتبارها أساسية، فإنه يتبين في هذه الحالة -للعبرة- أنه على العكس من ذلك تمامًا، فإن الثقافة الإسلامية ليست وراءً، بل هي رائدة، حيث إن خطابها التشريعي مقدّرٌ، ومُقتدى بهذا الصدد، مما من شأنه أن يمنح منظورًا منعشًا للتداول حول كونية حقوق الإنسان"[١٥]. ■

---

[*] الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

[١] مقاصد الشريعة في اصطلاح العلماء هي: الغايات والأهداف والنتائج والمعاني التي أتت بها الشريعة، وأثبتتها في الأحكام، وسعت إلى تحقيقها وإيجادها والوصول إليها في كل زمان ومكان. انظر مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص:١٣.

[٢] حدّد العلماء مقاصد الشريعة بأنها تحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة، أو في العاجل والآجل، يقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: "اعلم أن الله سبحانه لم يشرع حكمًا من أحكامه إلا لمصلحة عاجلة أو آجلة، أو عاجلة وآجلة، تفضلاً منه على عباده"، ثم قال: "وليس من آثار اللطف والرحمة واليسر والحكمة، أن يكلف عباده المشاق بغير فائدة عاجلة ولا آجلة، لكنه دعاهم إلى كل ما يقربهم إليه... ومصالح الناس في الدنيا هي كل ما فيه نفعهم وفائدتهم وصلاحهم وسعادتهم وراحتهم، وكل ما يساعدهم على تجنب الأذى والضرر ودفع الفساد، إن عاجلاً أو آجلاً". انظر شجرة المعارف والأحوار، ص:٤٠١.

وقال الإمام الشاطبي: "إن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل" إما بجلب النفع لهم، أو لدفع الضرر والفساد عنهم. الموافقات ٩/٢.

[٣] يعتبر المذهب المالكي من أهمّ المذاهب القائلة به. واعتبار أصل الذرائع بالسد أو الفتح يُعدُّ من وجهٍ توثيقًا لمبدأ المصلحة الذي استمسك مالك بعروته؛ فهو اعتبر المصلحة الثمرة التي أقرّها الشارع واعتبرها ودعا إليها وحث عليها؛ فَجُلبُها مطلوب، وضدها -وهو الفساد- ممنوع؛ فكل ما يؤدي إلى المصلحة بطريق القطع أو بغلبة الظن يكون مطلوبًا بقدره من العلم أو الظن، وكل ما يؤدي إلى الفساد على وجه اليقين أو غلبة الظن يكون ممنوعًا على حسب قدره من العلم؛ فالمصلحة بعد النص القطعي هي: قطب الرحى في المذهب المالكي، وبها كان خصبًا كثير الإثمار. أبو زهرة، مالك عصره وآراؤه الفقهية، ص:٣٥٢.

[٤] ومن أدلة هذا الأصل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(الأنعام:١٠٨)، فحرم الله سب آلهة المشركين، مع كون السب غليظًا، وإهانة لآلهتم، وما ذلك إلا لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، فكان مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم. قال الشاطبي رحمه الله: "وسد الذرائع مطلوب مشروع وهو أصل من الأصول القطعية"، انظر الموافقات ٦١/٣.

[٥] شرح تنقيح الفصول، ص:٤٤٩، والفروق ٦٣/٢.

[٦] نظم مراقي السعود، نظم في موضوع أصول الفقه، للشيخ عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي الشنقيطي (ت ١٢٣٣هـ).

[٧] مختصر ابن الحاجب ٢٤٤/١، شرح الكوكب المنير ٣٥٧/١.

[٨] وسدُّ الذرائع فيه اعتبار للمآلات وجلبِ المصالح ودرءِ المفاسد، ما أمكن الدفع والجلب؛ فإنه لما كان مقصود الشريعة إقامة مصالح الدنيا على طريقةٍ تُحكَم فيها بحكم الدين المسيطر على الوجدان والضمير، ودفع الفساد ومنع الأذى حيثما كان؛ فكل ما يؤدي إلى ذلك من الذرائع والأسباب يكون له حكم ذلك المقصد الأصلي، وهو الطلب للمصلحة، والمنع للفساد والأذى.

[٩] الموفقات ١٩٤/٣.

[١٠] يقصد الإمام الشاطبي "العلم بقصد الشارع بالاستقراء الكلي للأدلة في إجمالها وتفصيلها"، كما هو مبين في كتابه الموافقات.

[١١] الموافقات ٢٠٧/٤.

[١٢] الموافقات ٢٢٥/٢، وقال في الموازنة بين المصالح الكلية: "وكل واحدة من هذه المراتب لمّا كانت مختلفة في تأكد الاعتبار -فالضروريات آكدها ثم تليها الحاجيات ثم التحسينيات- وكان مرتبطًا بعضها ببعض كان في إبطال الأخفِّ، جرأةٌ على ما هو آكد منه، ومدخل للإخلال به، فصار الأخفُّ كأنه حمى للآكد، والراعي حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، فالمخلّ بما هو مكمّل، كالمخل بالمكَمَّل من هذا الوجه" الموافقات ٣٠/١.

[١٣] الدين في الديمقراطية، لـ"مارسل غوشيه"، ص:١١٤، يعني غوشيه هذه المسألة قائلاً:"إن إطار هذه التحولات التي تجري في المجتمع المدني، ونمط تركيبه وديناميكيته، هو الذي يجب أن يتم خلاله فهم التحولات، حتى تلك المتعلقة بالمعتقد، وهي تحولات متعلقة بطبيعته وموقعه، وفي الوقت نفسه، بأوضاعه الخاصة وحالته العامة. فالمعتقدات تحولت إلى هويات، مما يعني في الوقت ذاته، طريقة أخرى للاندماج فيها من الداخل، وطريقة أخرى للانتماء إليها من الخارج"، الدين في الديمقراطية لـ"مارسيل غوشيه"، ص:١١٣.

[١٤] الدين في الديمقراطية، لـ"مارسل غوشيه"، ص:١٢٩.

[١٥] Jason Morgan Foster, Yale University, Human Rights And Development L.G, Vol 8, pp 116.

د. سمير بودينار*

رسائل حية من عالم المسلمين

ما الـذي يحدث في عالمنا؟ ما الكامن خلف هـذه المشـاهد والتحولات الجاريـة فيه؟ هل مـا يقـع مـن أحداث جارفـة لمعالـم المعتاد هـو بدايـة أم نهايـة؛ نهاية صورة واقع عشـناه خلال أزيد من قـرن من الزمـان مضـى، تفاعلت فيـه الطموحـات والأفكار بالأحـداث؟ أم بدايـة مرحلة جديدة نسـتفيد فيهـا من دروس هذا الماضي فتتأسـس معالم جديدة للاهتداء؛ اهتداء الإنسان فـي نظره الفكري وسـعيه الواقعي، واهتـداء المجتمعات إلى تجـاوز معضلات الواقـع الذي كابدته طويـلاً، ثم أتت عليه رياح الاقتلاع والتغيير العاصفة التي لا تُعرف وجهتها ولا إلى أين مستقرها وقرارها.

تبـدو صـورة المشـهد الماثـل لعالمنـا، الملـيء بالقلـق والاضطراب، وخاصة ظلال هذا المشـهد على مجتمعاتنا في عالم المسـلمين، وكأنها إيذان بالدخول في طور جديد، لكن أحدًا لا يعرف طبيعته أو يتصور شكله ومعالمه... وهذا أخطر جوانب المشهد، وأكثرها استدعاءً للتوقف والتأمل والبحث.

لقد أنتج تحوّلٌ بحجم ما يحدث حولنا، وما يصاحبه من أحداث ضاغطة على الوعي ضغطها على المشـاعر، وارتفاع لصـوت العواطف والمطالـب، إنحيازًا لهـذه الجهة أو تلك، أو هـذا المطلـب أو ذاك؛ أنتـج واقعًا جديـدًا، ملتهبا... وهو ينبغي أن يكون مُشعِلاً لإرادة أداء الأمانة الخطيرة، أمانة التدبر فيما حولنا، والتفكير في مآلاته وعواقبه، قيامًا بأمانة الشهادة.

لا يختلـف اثنـان أن صدمـة اللقـاء بيـن منظومـة الغرب الحديـث وبين عالم المسـلمين، كانت صدمـة مدوية لا تزال رجَّاتُهـا تتـردد في فضائه. ولعل السـبب الأول فـي ذلك، أن الصدمـة تمـت فـي أصعـب لحظة ممكنـة، عندمـا كان عالم

المسلمين يعيش حالاً من الضعف والتراجع الشديد في حيويته الفكرية وبنائه الحضاري. في حين كان النموذج الوافد يعرف صعودًا شكَّله تضافر عوامل متعددة تبدّت في شكل قوة حضارية، مندفعة بقوة الأفكار والاقتصاد والسلاح أو ما يرمز إليه اختصارًا في اللغة الفرنسية (لغة رواد الاستعمار) ـ"الميمات الثلاث": (Les trois M: Mis-sionaires, Militaires,Marchands).

أما السبب الآخر في استمرار آثار الصدمة إلى اليوم، فهو أن فعلها لم يقتصر على لحظة اللقاء الاضطراري نفسه، سواء تجلت في انطلاق الحملة الفرنسية على المشرق ومركزه مصر عام ١٧٩٨ والتي وطأت خلالها خيل "نابليون بونابارت" باحات الأزهر، أو في نجاح المخطط الطويل والممتد لتفكيك الإطار الجامع لمجتمعات المسلمين بسقوط الدولة العثمانية، وقبل ذلك في احتلال الحلفاء -بعد الحرب العالمية الأولى- عاصمتَها التي مثلت رمزًا موشومًا في الذاكرة الجماعية للمسلمين جميعًا.

بعبارة أخرى، إن أخطر آثار صدمة الاحتلال الأجنبي، أنه عبث بالأسس التي شكلت النموذج الثقافي والمعنوي والاجتماعي لعالم المسلمين. وهكذا بدأ التشوه في الإدراك، والهزيمة النفسية، والاستتباع في الفكر المنتج للتقليد في أسلوب التفكير ونمط الحياة.. فكأنما انتقل المسلمون ليبدأوا رحلة قسرية عاشوا خلالها تاريخًا غيْر تاريخهم، فخرجوا بذلك من مسارهم الحضاري الخاص إلى مسارات لا تزال مفتوحة على الأزمات المتتابعة.

كان هذا الواقع الجديد مؤذنًا بانبعاث الفكر الإصلاحي والنهضوي التجديدي في عالم المسلمين، في سعي إلى استئناف حياتهم على أسس من ذاتيتهم المعنوية والفكرية، ليستطيعوا إعادة إنتاج نموذجهم الثقافي والمجتمعي الخاص، فيتخطوا وهدة الخضوع لسلطة النموذج الوافد بالقوة العسكرية والعلمية، ويؤسسوا من جديد عمرانهم الحضاري، مرتبطين في ذلك كله بنموذجهم التاريخي المضيء كعلامة مرجعية في هذا السعي.

اتحاد مشكلات مجتمعات عالمنا في النوع، ومحدودية التأثير من خلال مؤسسات الدولة الحديثة، أصبحا يوجهان إلينا رسائل مُلِحّة تتعلق بالبدأ من حيث ينبغي أن يكون البدأ: بناء الإنسان بناءً صحيحًا يؤهله ليكون مفتاح التغيير ومادته وموضوعه، وذلك من خلال وجوده في كافة مؤسسات مجتمعه وأمته.

وفي الحالتين اللتين مثلتا المحطتين البارزتين لهذا الصدام الأليم كانت المحاولات المؤسسة لهذا الانبعاث. ولأن السياق التاريخي بظروفه وموازينه حاكم في هذا السياق، فقد انطلقت الحركة النهضوية منذ أزيد من قرن ونصف في الشرق مع العلماء المسلمين الإصلاحيين، من أمثال جمال الدين الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد عبده ورشيد رضا.. فكان لهؤلاء النصيب الأوفى من التأثير فيما شهدته مصر من انطلاق الحركات الإسلامية في نهاية العشرينات من القرن الماضي، في مسار من الانتقال في الأهداف المرحلية طبعه التأثير والتأثر المتبادل بين المراحل المتعاقبة، يلخصه مؤرخ مهم لهذه التجربة بقوله: "قد أرسى الأفغاني فكرة الإسلام المجاهد، وأضاف محمد عبده فكرة التجديد في الفقه والتفسير، وتابع محمد رشيد رضا الربط بين التجديد والسلفية والتفاعل مع السياسات الوطنية، وأضاف حسن البنا شمولية الإسلام والترابط الوثيق بين العقيدة والشريعة والسياسة وبين الفكر والتنظيم الحركي"[1].

كان ذلك هو الإطار النظري والحركي الذي تراكم عبره التراث الفكري والرؤية الحركية للإصلاح والتغيير التي أثّثت -في الغالب- الفضاء العربي والإسلامي. ولعل الحراك الذي يشهده الآن هذا المجال، هو حصيلة ساهمت فيها تلك الأفكار والآراء جميعًا، فكانت تجليًا واقعيًا لنتاج أزيد من قرن ونصف قرن من المحاولات.

في نفس المرحلة التي انطلق فيها ما أضحى يسمى على نطاق واسع "الإسلام الحركي"، وبدافع من ذات الواقع (سقوط الدولة العثمانية) ونفس الأسباب التاريخية والحضارية، ظهرت في تركيا مدرسة موازية لتلك التي جسدتها النهضوية الإصلاحية وامتدادها مع الاتجاه الحركي في المجال العربي. كان رائد تلك المدرسة هو الأستاذ بديع الزمان "سعيد النورسي" الذي بدا أمامه الزحف المهدد

لأساس الدين في نفوس أبناء وطنه، فجعل إنقاذ الإيمان أساس رسالته ولحمة أفكاره ومَعلَم مشروعه المبثوث في موسوعته التفسيرية الشهيرة "كليات رسائل النور"، والتي حافظت بتأثير من طلابه الكثر، على معاني الإيمان والانتماء حية في نفوس فئات واسعة من أبناء تركيا.

غير أن بداية التحوّل الأهم لاتجاه الإصلاح الشامل والبناء المجتمعي المنطلق من ذات الأسس، كان في نهاية الستينيات من القرن الماضي، حين انطلقت "حركة مجتمعية" جديدة، استفادت من تراث رسائل النور، ومن غيره من المدارس التربوية والفكرية، فأبدعت نموذجًا جديدًا هو نموذج "الخدمة". كان ذلك بتأثير من العالِم والمفكر "محمد فتح الله كولن"، الذي جمع في هذه التجربة بين التربية الشاملة للإنسان، وإطلاق مقومات فعاليته الحضارية في عصره، ليستأنف إنتاج النموذج المثالي لـ"عصر السعادة" (عصر النبوة والصحابة) على جميع المستويات، بل وفي ساحات العالم المختلفة، بعيدًا عن العمل السياسي المباشر، لكن في عمق الفعل المجتمعي والحضاري.

ورغم أن اهتمامًا واسعًا في العالم العربي بدأ يتبلور في الدوائر العلمية والفكرية بهذه التجربة وفكر صاحبها خلال العقد الأخير خصوصًا، إلا أن رسائل الحراك الراهن، ربما كانت دافعًا قويًّا لمزيد من التفاعل معها. ذلك أن مسؤولية اللحظة الراهنة، بمخاطرها وتحدياتها والأهم من ذلك بدروسها المستفادة، تلقي على النخب الفكرية مسؤولية يمكن وصفها بأنها "أمانة اللحظة"، وهي بناء قواعد ما يسميه المفكر المصري حامد ربيع "التدبر الإستراتيجي"، ومنطلقه قراءة متأنية للخلاصات المتأتية إلى الآن من واقع هذا الحراك وما أوقعه من أحداث متتالية، لتلمس الخطى على طريق المستقبل.

إن الملاحظ المتفحص في الأزمات التي يعيشها عالمنا اليوم، وهذا المجال الحضاري العربي الإسلامي منه على وجه التحديد، يدرك أن جوهر تلك الأزمات الماثلة إنما هو الضعف الشديد في الأدوات الراهنة للتعامل مع هذه الأزمات، أو التي يعتقد أنها لا زالت قادرة على إحداث التغيير في واقع المجتمع وبناء نموذجه الحضاري الفاعل. وما المحاولات الدؤوبة والمتكررة باستخدام ذات الأدوات في التغيير، وما أوصلت إليه من مآزق، إلا دليل واضح على ذلك.

ولعل مشكلة أدوات العمل السياسي في ظل الدولة الحديثة، مثالٌ بيّنٌ على تلك الأزمة. أما الاعتماد عليها طريقًا للبناء في دولة ما بعد الاستقلالات الوطنية في عالم المسلمين، فتلك معضلة أخرى لا تقل نتائجها خطورة ولا أفقها انسدادًا.

إذ بالرغم من أن حركات التغيير في المجال العام اليوم وخاصة تلك التي تصدر عن الإسلام مرجعية، تمثل استعادة -واعية أو غير واعية- لتراث الفكر الإصلاحي والنهضوي الحديث، ومحاولة استثماره في التغيير المطلوب. إلا أن صورة الواقع الاجتماعي والسياسي المعقدة من جهة، وعدم وجود نموذج تطبيقي يصلح البناء على خبراته من جهة ثانية، أصبحا مؤذنين بحالة من الانسداد في أفق التغيير، ما لم نلق السمع لتجارب أخرى ونماذج عملية سابقة نجحت على ذات المسعى.

والذي يبدو أن اتحاد مشكلات مجتمعات عالمنا في النوع، بما يتجاوز القدرة على التعامل معها وفق رؤية محلية وخاصة، وبشكل منفصل عن سياقها الكوني، ومحدودية التأثير من خلال مؤسسات الدولة الحديثة، أصبحا يوجهان إلينا رسائل مُلِحّة تتعلق بالبدأ من حيث ينبغي أن يكون البدأ: بناء الإنسان بناءً صحيحًا يؤهله ليكون مفتاح التغيير ومادته وموضوعه، وذلك من خلال وجوده في كافة مؤسسات مجتمعه وأمته. بل ليكون مثالاً يتحقق به نموذج التغيّر في عالمنا الذي طالما افتقد الوجهة والمعنى، وذلك حين يتأتى لهذا الإنسان ميراث الأرض الذي لم يكتبه الله إلا لعباده الصالحين.

تلكم هي مهمة القيام بأمانة الشهادة تجاه واقع عالمنا الذاتي، عالم المسلمين الذي تُعلمنا خبراته التاريخية والواقعية على السواء ألا نستعظم المهمة أو نستطول الطريق.. طريقَ بناء الإنسان المؤهّل لخدمة أمته وعالمه. ■

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

الهوامش

(1) الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر، لطارق البشري.

عبد العزيز بن عمر*

مؤتمر "الإجماع والوعي الجمعي"

يؤكد على روح التوافق والإخاء

ظلت الأمة الإسلامية منذ قرون خلت، تبحث في شغف عن ما يبرئها من أسقامها التي تنامت وتكاثرت وتكالبت عليها، فغدت كجمع من الناس تائه بين الفيافي والقفار، يغدو يمنة ويسرة مبتغيًا شرْبةَ ماء تنهي ظمأه وتبعث روحه، فلا السراب ينجيه، ولا القطرات المتناثرة تكفيه.. تكاد الأنفاس تنقطع والعزائم تخور، فما له غير تآلف القلوب هدفًا منشودًا، وتضافر الجهود عملاً دؤوبًا وتوجّه بالدعاء المخلص للرحمن الودود.

بصوت شجي نادى منادي التوافق والإجماع من بلاد الأناضول، فهبّ أهل الهم الواحد من مشارق الأرض ومغاربها مستبشرين ملبّين.. لَبَّيك نداء المحبة.. لَبَّيك نداء المودة.. لَبَّيك نداء الإخاء.

من ثمانين دولة جاؤوا، يتقدم الركب أكثر من ست مائة عالم، يتبعهم أزيد من أربعة آلاف مشتاق قاصدين حضن تركيا الدافئ، ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا الله ويسرعوا الخطى إليه. إذ احتضن مركز المؤتمرات بإسطنبول، يومي ٢٧ و٢٨ أبريل ٢٠١٣م، مؤتمرًا دوليًا عالميًا حول موضوع "الإجماع والوعي الجمعي.. فقهًا وروحًا وثقافة وسلوكًا" من تنظيم مجلتي "حراء" و"ينبي أُمِيت".

افتتح المؤتمر في جوّ مهيب وجمع غفير، يردد في خشوعٍ صدى آيات الله تعالى الداعية إلى الوحدة ولَمّ الشمل، الناهيةَ عن التفرق والتشتت والتنازع، تلاها المقرئ "رضا كوناي" بنفس خاشعة ودموع حارقة.

وفي مستهل الكلمات الافتتاحية لمنظمي وضيوف المؤتمر، اعتلا المنصة الدكتور "أَزْكون جابان" مدير تحرير مجلة "ينبي أُمِيت"، ليركّز في كلمته على أن التحدث عن الإجماع اليوم يأتي في سياق ما أورده الله تعالى في كتابه الكريم في وصفه لخيرية الأمة، إذ يقول تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠)؛ فالإجماع هنا، إجماع الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويضيف الدكتور "جابان"، أن للإجماع قيمة في حياة المسلم، ودورًا في تحديد هويته. فالمسلمون بحاجة ماسة اليوم إلى زرع ثقافة الإجماع في نفوسهم أولاً، وفي أوساطهم ثانيًا.. ثم اختتم المتحدث باسم مجلة "ينبي أميت" كلمته متوجهًا إلى الحاضرين، مذكّرًا ومؤكدًا على وجوب السفر

في التاريخ وقطع المسافات، بهدف الغوص في حياة الصحابة الكرام وحياة العلماء الأفذاذ والفقهاء المخلصين، لاستخراج المعايير الأساسية في تأسيس فكر وثقافة الإجماع في الأمة.

وفي نفس سياق "يني أميت" سارت "حراء" وغرّدت على لسان مُشرِفها العام الأستاذ "نوزاد صواش"، إذ عزَف على أوتار قلوب الحاضرين حين رحب بهم أجمل ترحيب، ونثر عبارات الشكر والامتنان وَرْدًا فوق رؤوسهم.

استعرض الأستاذ "نوزاد" في بداية كلمته، حال الأمة الإسلامية والأزمات المتعددة التي ترسم ملامحه، متسائلاً عن الحلول التي من شأنها أن تغيّر حاله إلى الأحسن.. فأكد على أن الإجماع والاجتماع، والتوافق والانسجام، حلّ لا بديل عنه، فلتجتمع ألسنة هذه الأمة وقلوبها على الدعاء، ولتتناغم جهودها في الإصلاح، فالربيع لا يتجلّى في وردة واحدة، وإنما في زهور وورود متجاورة متناسقة.

وفي إشارة إلى أن هذا المؤتمر بكِبَر حجمه وعمق معانيه وأصالتها، ليس مفصولاً عن ما سبقه، فله ما قبله وله ما بعده.. فمن خلال اللقاءات والندوات العلمية والفكرية المنظمة من قبل، زادت الألفة، وترسّخت أسسُ المحبة في نفوس كل المشاركين فيها، فهذا هو الأصل، وهذا هو المنبع الذي منه تنبثق الجهود السديدة، وبه تنبت الأصول الخيرة.. فالإنسانية بحاجة إلى قلوب ليّنة رحيمة، وأيادٍ تخفف معاناتها وتأخذ بها إلى دوحة الإخاء والتآلف.

وفي أولى المداخلات للعلماء الحاضرين، مُنحت الكلمة للدكتور "أحمد عبادي" الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء بالمملكة المغربية، فشَكَر الله تعالى وحمَده، وأثنى على منظمي هذا الحدَث المشهود، الذي من شأنه أن يُخرج أصلاً ثابتًا في أصول الشريعة الإسلامية إلى حياة الناس، ليُنهي ما بينهم من فرْقة واختلاف، فجذوره الأصل تبدأ من القلوب إذا تطهّرت وتزكّت، لتثمر ثمار التوافق والمحبة.

وتناول الدكتور"عبادي" بالشرح جُملةً من الدواعي التي تُفَعِّل "الإجماع" وترسِّخ "الوعي الجمعي" وهي أربعة:

١- الداعي البرهاني: فكيف لأمة متفرقة متشرذمة أن تقنع الغير بخيريّتها وأفضليّتها!؟ فعلى المسلمين اليوم أن يوحّدوا كلمتهم، ليكون لِصَوْتهم صدى في الآفاق وفي قلوب الناس.

٢- الداعي التشريعي: يفيد الوجوب، لأن الآيات القرآنية تأمر بالإجماع وتدعوا إليه في أكثر من موضع.

٣- الداعي الواقعي: فهناك على رقاب الأمة سيوف مسلّطة، تتمثل في قضايا اجتماعية وحضارية حارقة لابد من تفكيكها وتحليلها، والوصول إلى حلول عملية تخمّد لهيبها المتواصل.

د. محمد مصطفى الياقوتي، وزير الدولة في وزارة الإرشاد والأوقاف / السودان.

أ.د. نادية مصطفى، جامعة القاهرة / مصر.

أ.د. سعاد يلدريم، جامعة الفاتح / تركيا.

أ.د. أحمد عبادي، الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

٤- الداعـي التربوي: وهو دور العلماء والمربّين، فعليهم أن ينشـئوا الأجيال القادمة على الإخاء والود والمحبة، وعليهم كَبْحُ جِماح التَشْظيَة والتَّشَرْنُق ويُحِلّوا محلها معاني الوئام والاجتماع.

وتوالت كلمات السادة العلماء القادمين من كل حدب وصوب، ملبّين نداء الجمع والإجماع.. فمن السودان قدم الدكتور "عصام البشير" الذي أكـد بحرقة في كلمته، على أن كلمة "الوعي" الواردة في عنوان المؤتمر، تـدل علـى الانتباه واليقظة بعد الغفلة، وبالتالي فإن الوعي بالإجماع يأتي تحقيقًـا لمفهـوم الأمة "الشـاملة" التي تنشـد "الوحـدة" وتعتبـر التعددية والتنوع من منطلق قاعدتين، هما وحدة الخالق وتعدد الخلق.

ومـن الولايـات المتحـدة الأمريكية جاءت رسـالة الأسـتاذ "فتح الله كولـن"، عابقـة بأريج الوفـاق، وداعية إلى لَمّ الشَّـمل، وحاثّة على حمل همّ الأمة، فمِمَّا جاء فيها:

"والـكل يأمل أن يقدم علماؤنا في هذا الاجتماع البالـغ، حلولاً بديلة لمعضلاتنـا المزمنة، مسـتقاة من مصادرنا الأساسـية"، وفي سـياق تَبْيِين وتجليـة موطـن الـداء، ومكمن معاناة الإنسـانية عبر التاريـخ، ثم تحديد ملامـح الحـلّ والانعتاق يقول الأسـتاذ فتح الله: "وكما هـو معلوم لدى جمعكـم الكريم، فإن النظم المفروضة على الإنسـانية قاطبة، خلال قرن أو قرنيـن أخيريـن، لـم تُغْنِ عنها شـيئًا ولـم تزدها إلا اضطرابًا وشـقاء.. فلذلـك نعتقـد جازميـن أنـه إن كان هنـاك جو يسـمح لبني الإنسـان أن يتنفّسـوا منتعشـين، فما هو إلا جو الإسـلام.. وهذا الجو لم يزل كالبحر الـذي لا تسـكن أمواجه، طاهـرًا أبدًا، نديًّا عميقًـا، لا يتكدّر قطّ بالأدران الفكريـة لأي زمـان أو مـكان. لكن الوصـول إليه وتمام الاسـتفادة منه، ظـل دائمًـا يتطلـب تثبيتًا لِلنّيّة، وتسـديدًا لزاويـة النظر، وعلـوًّا في الهمّة وثباتًـا في المثابرة، وصدقًا في التوجه، وثقة بالأسـس والأصول".. وعن التناول الأمثل للمصادر الأساسـية في التشـريع الإسـلامي، والاسـتفادة منهـا وتفعيلها في حياة الإنسـان المسـلم، يقول الأسـتاذ فتح الله: "وإني شـخصيًّا أعتقد جازمًا بأننا إذا تناولنا مصادرنا الأصلية والفرعية لثقافتنا، من القرآن والسـنة والإجماع والقياس والاستحسـان وغيرها، واسـتفدنا منها على غرار المخاطبين بها في القرون الأولى، فإننا سنتغلّب على كثير من معضلات عصرنا المسـتعصية على الحل، وستنكسـر كثير من أمواج الأزمـات والدواهي المتلاطمة التي تنتظرنا في المسـتقبل، أو ستتلاشـى أضرارها في أقل تقدير".

بعدهـا تحدث الشـيخ "محمد سـعد أبـو بكر" من نيجيريـا، عن أحد الأهـداف السـامية المتوخّاة من هذا المؤتمـر، وهي وضـع خارطة طريق مشـتركة ترسـم ملامـح "الإجمـاع" بين المسـلمين، وأكـد على وجوب الاهتمـام بالتربيـة والتعليم وجميـع الظروف المحيطة بهمـا، باعتبارهما

أ.د. سيف الدين عبد الفتاح، جامعة القاهرة / مصر.

د. سمير بودينار، مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية / المغرب.

الشيخ محمد سعد أبو بكر، رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / نيجيريا.

أ.د. علي جمعة، مفتي الديار المصرية السابق.

أ.د. عصام البشير، رئيس مجمع الفقه الإسلامي / السودان.

د. محمد باباعمي، مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

مدخلاً أساسيًّا للوصول إلى مجتمع إسلامي تسوده روح التوافق والإجماع. وشَدّ على يده الشيخ العالم "راشد الغنوشي" من تونس، في رسالة بعثها للحاضرين -قرأها بالنيابة عنه الدكتور عبد الحميد النجار- إذ بيّن فيها أهمية توسيع المساحة الدلالية لـ"الإجماع" لكي لا يبقى حبيسَ التفسيرات والدلالات الفقهية فحسب، ونوّه إلى أن الجهود المباركة التي سيبذلها العلماء في المؤتمر وبعده، هي التي ستعيد الأمل للأمة الإسلامية، وتبعد الفرقة عنها والتشتت، بل وتدفع بها إلى الفعل الحضاري إن شاء الله.

من الهند إلى سلطنة عمان ومن ثم إلى أفغانستان، انتقل الحاضرون بانتباههم وتركيزهم بين كلمات العلماء، إذ تحدث الشيخ الدكتور "أبو القاسم النعماني" رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم في الهند، عن أهمية الإجماع في حياة الأمة، مقدّمًا أمثلة من عصر الخلفاء وحياة الصحابة.. وأكد الشيخ "أحمد بن حمد الخليلي" مفتي سلطنة عمان، على وجوب التكامل والتعاون ولو أوان الاختلاف، وأنه لا مجال ولا وقت اليوم للتنافر والتناحر والتشتت، فعلى الأمة أن تحرص على الوحدة كحرصها على التوحيد، وأن تلتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك التزام بالهدى والوحدة.. ثم تبعه الدكتور "يوسف نيازي" وزير الإرشاد والحج والأوقاف من أفغانستان، بكلمة أكد فيها على أن الأمة الإسلامية إذا اجتمع علماؤها، فإنهم يجتمعون بغية الخير والسداد لا للغي والضلال.

وبعد جولة فكرية جابت البلاد العربية ممثلة في أكبر علمائها، شُدّت الرحال عودةً إلى تركيا، لتستقر عند كلمات الدكتور "محمد كورمز" رئيس الشؤون الدينية التركية، فحمَد الله وأثنى عليه، ثم طاف بالحضور بين معاني عنوان المؤتمر "الإجماع والوعي الجمعي" من خلال حياة صحابة رسول الله ﷺ، فبيّن أن إجماع الصحابة، فيه الكثير مما يمكن دراسته واتخاذه نموذجًا، فمرجع أمور المسلمين في عصر الصحابة كان للإجماع، إذ كانوا رضي الله عنهم أجمعين، يعيشون المقصد والمبتغى من قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣)، أي الأمة "المركز"، الأمة التي تشكل نقطة توازن دولي بين جميع الأمم.. وبيّن للحاضرين أن التحلّي بالوعي الجمعي يمكّنهم من دراسة الكثير من القضايا الحساسة في حياة البشر اليوم.

إلى هنا تبيّن للحاضرين أثناء تجوالهم من كلمة افتتاحية إلى أخرى، المعاني العامة لمفهوم "الإجماع" وأبعاد "الوعي الجمعي"، لتأتي المحاضرة الافتتاحية للدكتور "علي جمعة" مفتي الديار المصرية السابق، لتزيح الغموض عن بعض القضايا المحورية المتعلقة بموضوع المؤتمر، من حيث دلالة المصطلح وأبعاد توظيفه وتفعيله، فأورد فيها أن الإجماع ممتلك للحجية والمصدرية ما دام محتواه متصفًا بالاتفاق التام بين المجتهدين، أما إن شابه بعض الاختلاف من بعضهم، فإنه يتحول من المصدرية إلى الاستئناس، والشرط الأساسي في هذا الاعتبار، أن يكون الرأي مبنيًّا على العلم والاجتهاد لا عن جهل وادعاء.

ثم ركز الدكتور "علي جمعة" على أنه ليس من الحكمة حصر "الإجماع" على أمور الشريعة، إذ من خصائصه أنه عام على أمور الحياة كلها بمختلف علومها ومجالاتها.. وبيّن أن مسائل الإجماع معدودة، ومسائل اختلاف الرأي كثيرة وعديدة، فللحفاظ على وحدة الأمة، وجب احترام الرأي المخالف، لأنه غالبًا ما يكون الاختلاف في الأمور المتغيرة لا في الثابت منها.

فضيلة الشيخ بدر الدين أحمد بن حمد الخليلي، المفتي العام لسلطنة عمان.

أ.د. محمد كورمز، رئيس الشؤون الدينية / تركيا.

بعد استراحة للتواصل والتعارف والتلاقي -فالمشاريع الحضارية تولد من رحم العلاقات الوطيدة، والمحبة القلبية الصافية- عاد المشاركون، ليشهدوا بداية الجلسة العلمية الأولى برئاسة الدكتور "علي بارداك أوغلو" رئيس الشؤون الدينية السابق من تركيا، ويشارك فيها كل من الأساتذة الأفاضل؛ الدكتور "إبراهيم كافي دُونْمَز" رئيس جامعة ٢٩ مايو بإسطنبول، بمحاضرة تحمل عنوان "أصل الإجماع ومكانته بين الأدلة الشرعية". والدكتور "محمد كمال إمام" من جامعة الإسكندرية بمصر، بمحاضرة حول "عصمة الأمة باعتبارها مؤسِّسة لثقافة الإجماع". والدكتور "يونس أبايدن" من جامعة أَرْجياس كلية الإلهيات بتركيا، بمحاضرة عن "الإجماع باعتباره آلية للرقابة الشرعية".

وتمحورت محاضرات الجلسة العلمية الأولى على أهمية الإجماع ومدى تأثيره حتى في تفاصيل حياة المسلمين، لأنه جزء من البنيان الحضاري للأمة الإسلامية.. فلا يمكن بناء حضارة متكاملة، إلا إذا كان للإجماع مكانة كبرى في نفوس علماء الأمة وفي أفعالهم، وأنه لا مناص من التمكين للإجماع مؤسَّسِيًّا، فعصرنا هذا عصر مؤسسات وعمل جماعي لا عصر العبقرية الفردية والرجال الخارقين.

ثم ترأس الجلسة العلمية الثانية الدكتور "حمزة آكتان" الرئيس السابق للهيئة العليا للشؤون الدينية في تركيا، وحاضر فيها كل من الأساتذة؛ الدكتور "طالب تُرْجان" من جامعة سليمان دميرل كلية الإلهيات بتركيا، بمحاضرة موسومة بـ"أهمية ومكانة إجماع الصحابة". والدكتور "بشير كوزوبَنْلِي" من جامعة أتاتورك كلية الإلهيات بتركيا، في محاضرة بعنوان "تطبيقات الشورى والإجماع في النموذج العُمْري". وأخيرًا الدكتور "محمد المختار الشنقيطي" من كلية الدراسات الإسلامية بمؤسسة قطر، بمحاضرة حول "إجماع الصحابة مؤسِّسا للإجماع المنشود اليوم".

إذ غاص كل من الحاضرين في هذه الجلسة العلمية في حياة الصحابة، واستخرجوا منها المعاني والعبر محاولين إسقاطها وتكييفها، بما يتوافق -نظريًّا على الأقل- مع مقتضيات العصر، إذ أورد الدكتور "طالب تُرْجان" أن "الإجماع" هو وضع لمعايير حَدّية في فهم المصادر الأساسية من قرآن وسنة، إذ لا يمكن تجاوزها أو تجاهلها. وبيّن الدكتور "بشير كوزوبَنْلِي" أن عصر عمر بن الخطاب ﷺ، تميز بالشورى والإجماع، إذ كان يَعتبر استشارة الصحابة في القضايا الأساسية والمصيرية للأمة الإسلامية. ولفت الدكتور "محمد الشنقيطي" انتباه الحاضرين إلى أنه تم التركيز كثيرًا -في الدراسات التي تتناول "الإجماع" موضوعًا- على الخليفة الراشد، لكن غالبًا ما يُتناسى المجتمع الراشد، مبيّنًا وموضّحًا أن من صفات المجتمع الراشد ما سماه بـ"التأمُّر"، أي التحكّم في خيارات الأمير والمساهمة في صنعها.

انقضى اليوم الأول من المؤتمر، فافترق الجمع حاصدين من ثمار التوافق والإجماع، حبًّا ومودة، وفكرًا متوافقًا في أصوله ومبادئه، مبتغين تحقيق أفعال حضارية ولودة، تساهم في رأب ما بالأمة الإسلامية من صدع، و تضيء بصيص أمل من شأنه أن يوقد شمعة الأمل في نفوس بشر حائرين.

أشرقت شمس اليوم الثاني من المؤتمر، مؤذنة بتواصل الرحلة نحو إدراك "الإجماع" وتحقيق "الوعي الجمعي"، إذ استُهلت بالجلسة العلمية الأولى برئاسة الدكتور "سعاد بِلْدريم" من جامعة الفاتح كلية الإلهيات بتركيا، وبمشاركة كل من الأساتذة؛ الدكتور "أحمد عبادي" من المغرب، إذ اختار "القرآن مؤسِّسًا لإجماع الأمة اليوم" عنوانًا لمحاضرته،

بالإضافة إلى الدكتورة "نادية مصطفى" أستاذة العلاقات الدولية بجامعة القاهرة في مصر، بمحاضرة عنونتها بـ"الإجماع من وحدة المصدر إلى وحدة التنوع".

إذ تناول الدكتور "أحمد عبادي" العلاقة مع القرآن الكريم بالتحليل والنقد، إذ بيّن أنها لا يجب أن تكون سطحية محصورة في مقصد التبرك به، لأنها علاقة غير فعّالة، بل وجب أن يكون التعامل مع كتاب الله، تعاملاً حضاريًّا تتجلى آياته وأحكامه وضوابطه واضحة في حياة المسلمين، وهذا لن يتأتى إلا بثني الركب وتقويس الظهور، من أجل استخراج كنوز القرآن، لتنوير الإنسانية بها، بفكر شمولي وبرحمة وشفقة لا بإقصاء وغرور.

وواصلت الدكتورة "نادية مصطفى" في نفس السياق، إذ بيّنت أن القرآن الكريم يورد التعدد والاختلاف باعتباره أصلاً في الكون وفي البشرية، لذا فإن الاجتهاد والمرونة، أمران تابعان لذلك بل وحتميان.

وبعد استراحة قصيرة، تواصلت أشغال المؤتمر في جلسته العلمية الثانية التي ترأستها الدكتورة "نادية مصطفى"، وشارك فيها كل من الأساتذة؛ الدكتور "سيف الدين عبد الفتاح" من مصر، بمحاضرة عنوانها "مؤسسة الإجماع: الشورى والديمقراطية"، والدكتور "سمير بودينار" مدير مركز الدراسات الإنسانية والاجتماعية بوجدة المغرب، بمحاضرة عن "منظومة القيم والبناء المجتمعي للإجماع"، ثم الدكتور "عبد الحكيم يُوجَه" عميد جامعة جلال بيار كلية الإلهيات تركيا، بمحاضرة عن "ثقافة الإجماع والبعد العرفاني".

فاتفق المحاضرون على أن الأمة بحاجة للخروج بالإجماع من الضيق الفقهي، إلى رحابة التفسير الشمولي، على أن يعالج الموضوع في إطارين: مقاصدي وقيمي كما يوضح الدكتور "سمير بودينار".

هذا وقد ترأس الجلسة العلمية الأخيرة الدكتور "حمدي دوندورن" من جامعة الفاتح كلية الإلهيات تركيا، ونشّطها الدكتور عبد الحميد مدكور من جامعة القاهرة كلية دار العلوم مصر، متحدثًا عن "فقه الائتلاف في ظل واقع متعدد المرجعيات"، والدكتور عبد المجيد النجار" الأمين العام للمجلس الأوروبي للإفتاء، بموضوع تحت عنوان "مراعاة السياق وأثره في فاعلية الإجماع"، وأخيرًا الدكتور "محمد باباعمي" مدير معهد المناهج بالجزائر، بمحاضرة تحت عنوان "نحو جيل الإجماع".

فبيّن الدكتور "عبد الحميد مدكور"، أن التعصب المذهبي و الفرقة الدينية، تهديد لهذا الأصل العظيم في الشريعة الإسلامية، فأَمْر الرسول ﷺ بالتزام الجماعة لا يعني اجتماع الأبدان، بل الالتزام بالنسق الحضاري الموحد ذو الهدف الواضح.

وتطرق الدكتور "عبد المجيد النجار" إلى أسس التشريع وسن القوانين، التي تَعتَبر الإجماع ركنًا أساسيًّا فيها.. فوضّح أنها وجب أن تصطبغ بصبغة الأحكام الشرعية الشاملة، لأن الحياة تؤخذ في كلياتها، لا تجزيء فيها ولا تفريق بين المجالات.

وعرج الدكتور "محمد باباعمي" من الجزائر، إلى ما يرومه كل حامل لهَمّ الأمة، وساعٍ من أجل اجتماعها وتوافقها.. فرسم ملامح جيل الإجماع المستقبلي؛ فلا مفر ولا مناص من الاهتمام بالجيل الناشئ، الذي سيطبّق الإجماع فعلاً وسلوكًا لا كلامًا وتنظيرًا، فمَن غيرنا يمسح دمعة طفل يئنّ تحت وطأة الجوع والحرب، ومَن سوانا يُعلي راية المحبة والمودة والتوافق.. إننا إن لم نفعل، لا معنى لحديثنا عن الإجماع.. فلنحرص على أن نكون سببًا في مستقبل التمكين لهذا الدين، تفاديًا للعذاب الأليم، ولنتق الله ولنقل قولاً سديدًا.

بالدعوة القلبية الخالصة لتقوى الله، وابتغاء السداد في القول والعمل، اختتمت الجلسات العلمية لمؤتمر "الإجماع والوعي الجمعي"، وآنت لحظات انتهاء رحلة الفهم والوعي والتداول العلمي، والجلسات العلمية الفكرية، توجتها الجلسة الختامية التي تُلي فيها البيان الختامي للمؤتمر، الذي ضم خطوات وتوصيات عملية تفَعّل موضوع المؤتمر ميدانيًّا، إذ يسعى القائمون على تحقيقها إلى وضع اللبنات الأولى لترسيخ ثقافة الإجماع تنشئةً وتربيةً ودعوةً وسلوكًا، وتكون نقطة التقاء آراء المفكرين واجتهادات العلماء والفقهاء من شتى أقطار العالم الإسلامي.

بدموع التضرّع إلى الله، وبأنفاس الحب التي ترافق كل شهقات وزفرات الداعين، وبعزائم السائرين في سبيل رفع راية السلام في العالمين، اختتم المؤتمر -شكلاً- على أن تبقى معانيه وروحه تسري في النفوس -فعلاً- يتجسد شعاعًا يرشد الأمة، وينقذها من ربقة الانشقاق إلى آفاق الاتفاق. ■

(*) كاتب وصحافي جزائري.

نداء إسطنبول

إن العلماء والأساتذة والباحثين القادمين من أكثر من ٨٠ دولة، والمجتمعين في إسطنبول خلال يومي السبت والأحد ١٧ و١٨ من جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ الموافق لـ ٢٧ و٢٨ من أبريل ٢٠١٣م في إطار المؤتمر الدولي الذي نظمته مجلة "حراء" ومجلة "يني أميت" بعنوان "الإجماع والوعي الجمعي"، والذي جاء انعقاده نتيجة لعدد من اللقاءات التحضيرية من قبل، نظرًا لأهمية هذا الأصل العظيم ومركزيته في حياة الأمة، وبعد أن تباحثوا أصل الإجماع الركين، وتجلياته العلمية والعملية بمختلف مراحلها عبر تاريخها الحافل، واستبانوا الإمكانات الهائلة التي يكتنزها إعماله في المناحي الحضارية، والثقافية، والتشريعية، والتنظيمية، والاجتماعية، والسياسية، والحياتية، ينادون بما يلي:

١- تأسيس تنسيقية بإسطنبول، تعنى بتعميق البحث والنظر في قضايا الإجماع في الأمة، وتتواصل مع مختلف المؤسسات والمراكز العلمية، والفقهية، والبحثية، والحضارية، والجامعية في العالم الإسلامي، وتكون لها قوة اقتراحية إجماعية حول مختلف قضايا الأمة.

٢- أن تشرف هذه التنسيقية على تحضير سلسلة من المؤتمرات السنوية المتكاملة، التي يتم فيها تدقيق وتعميق القضايا التي جاء ذكرها إجمالاً خلال هذا المؤتمر المبارك.

٣- أن تشرف هذه التنسيقية على تحقيق المخطوط من أمهات الكتب عن أصل الإجماع وحوله، وإعادة طبع المطبوع منها، مرفقة بدراسات إضافية ترصد الإضافات النوعية التي في كل منها.

٤- إصدار بحوث ودراسات جديدة حول أصل الإجماع، وفي مقدمتها أعمال هذا المؤتمر المبارك. وكذلك الوعي الجمعي الذي نحتاج إليه جميعًا كفكرة عبقرية تجمع بين فوائد الإجماع الأصولي والحاجة الملحة لأداة معاصرة في جميع المجالات.

٥- تجديد ما انفصل من وصل في فهومنا وممارستنا بين الإجماع وأصوله في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وممارسات الراشدين، واتخاذ هذا الأصل عدُّة عملية وظيفية لتناول مشكلات الأمة حاضرًا ومستقبلاً.

والله ولي التوفيق

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201004871038+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،
أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61
عمان/الأردن.
Phone: +962 656 064 44
GSM: +962 775 935 756
hirajordan@woxmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.
هاتف: 201065523089+ - 201119482609+
hiraegypt@gmail.com

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

إشراقات قلب
ولمعات فكر

أديب إبراهيم الدباغ

- سياحة مضنية في قلب حزين.. وروح جريح..
- فكر مِن رَحِم المعاناة مولود.. قرآني المنبع.. إنساني التطلع..

تجديدي في المفاهيم والإدراكات..!

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+

www.daralnile.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الصبر المعطاء

صبرًا صبرًا يا صاحبي.. لا حالَ يدوم،
ولا شتاءَ وجليدَ سيبقى..
إنما هي دورة حياة.. فإذا بالربيع قُبالتَك،
يفوح وردًا، ويضوع عطرًا،
ويتألق جمالاً، ويشيع دفئًا..

* * *

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٧٥ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 38
www.hiramagazine.com